قضية
من الزمن القادم

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني

E ـmail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي

د. طالب عمران

قضية
من الزمن القادم

منشورات اتّحاد الكتّاب العرب
دمشق

سلسلة القصة (2)
2019

عن اجتياح الغيلان

كان الوضع غريباً بالنسبة لـ "داليا" وهي تقترب من المنطقة التي تسكن فيها خالتها في تلك القرية الواقعة على أطراف البادية.

كانت الحافلة تنزل الركاب واحداً واحداً على الطريق ولم يبق سواها وشيخ طاعن في السنّ، يبدو أنه من نفس قرية سائق الحافلة.

توقفت الحافلة في مكان يطلّ على القرية من الطريق العام، وقال لها السائق:

-هذه هي القرية التي تقصدينها يا ابنتي.

-كأنها غير مسكونة، لا أرى أحداً.

-ومن تقصدين فيها؟ ربما يعرف بعض سكانها الشيخ (أبو بلال) أليس كذلك يا شيخ؟

-آه، قرية (الدارة) أعرف المختار (ابا سليم) وابنه فادي، وأعرف العائلة الأكبر فيها (السعيدي).

-خالتي متزوجة من أحمد السعيدي.

-أحمد السعيدي، أستاذ المدرسة أعرفه؟

-دعتني خالتي لزيارتها، والإقامة لديها فترة التحضير للامتحان، بيتنا في الشام كأنه في وسط الشارع، لكثرة الناس الذين يسكنون حولنا، من المهجّرين من مناطق أخرى، اجتاحها الغرباء.

-ولكن فعلاً، لا أرى دخاناً، ولا حركة في القرية، مع أنها قرية كبيرة. ما رأيك يا (ثابت) أن نوصلها إلى القرية؟

- ولكن الطريق شديد الوعورة، سنضطر أن نلتف من وراء تلال الرمل للوصول إليها، في الشتاء ونتيجة للمطر - رغم قلته - فإن مرور السيارة سهل نتيجة تماسك الرمل والتربة نتيجة المطر.

-انتظرني هنا، سأذهب لأوصلها بنفسي. أهذا مريح لك؟

-لابأس، سنذهب سيراً على الأقدام، ونترك السيارة هنا. أهي في مأمن؟

-بالطبع، من يجرؤ على فتحها وإدارة محركها في هذه المنطقة المقطوعة، وليس لديه المفتاح و. .

-لابأس. لابأس سنذهب معاً.

وهكذا رافقها الشيخ والسائق، حيث اجتازوا المنطقة الوعرة وأصبحوا أمام مدخل القرية، وقد بدت الساحة الرئيسية فيها.

وفعلاً لم يكن هناك حسّ لبشر يتحركون، أو حيوان يدبّ، كأن القرية مهجورة لا يسكن فيها أحد.

-أعرف بيت أحمد السعيدي، بيت خالتك، سنذهب إليه، ما رأيك. ؟

-لا بأس ياعم.

سارا في طرقات القرية وكانت خالية أيضاً ووصلا بيت خالتها، كان الباب الخارجي للدار مغلقاً أيضاً. معقول؟ أين خالتها وزوجها وأولادها؟

صرخ الشيخ وهو يطرق الباب:

- يا أهل الدار، يا أهل الدار، أين أنتم؟

فتح الباب وأطلّ منه السعيدي:

-أبو بلال، لماذا أنت هنا؟

-لماذا لا أحد في الخارج؟

-عجّلوا ادخلوا إلى هنا، سيأتي، القطيع بعد قليل.

-أي قطيع. ؟

-معقول؟ ألا تعرف عن أي قطيع أتكلم؟

-تقصد الغيلان؟ معقول؟

-نعم.

- لديكم ضيفة.

-ضيفة؟ تفضلوا بسرعة، ستأتي القطعان بعد قليل، لا وقت لدينا. آه، داليا، أهلاً بك يا ابنتي، ستسر خالتك بك كثيراً، إنها في القبو مع الأولاد.

-ولماذا أنت هنا؟

-حتى، أعرف كيف أتعامل مع الوضع.

اعتذر أبو بلال عن الدخول وهو يقول:

-سنذهب بسرعة، هيا يا ثابت.

-ادخلا، لا وقت لديكما. أتسمع الأصوات، الغيلان قادمون.

-ولكن؟

-لا وقت لدينا، هيا.

-ادخل يا شيخ أبا بلال إلى هنا، وسأذهب جرياً نحو السيارة. قبل أن تصل تلك القطعان الغريبة. عن إذنكم.

صرخ :ـ انتبه لنفسك يا ثابت.

قالت "داليا":

-وما تلك الغيلان؟ لم أسمع بها من قبل.

-آه، إنه حديث طويل. المنطقة تتعرّض لهجومها في مواسم القحط، ويبدو أنها تخرج من جحورها للبحث عن الطعام.

-منذ متى تهاجم فيها هذه المناطق؟

- منذ آذار العام الماضي، أي منذ أكثر من عام. هاجمت مناطق قليلة فقط. آه. يا إلهي. كيف عرفتم أنها قادمة؟

-رآها أحد الصيادين وهي تخرج من أوكارها تتجمّع كأنها تحضّر

نفسها للحركة، وهي عادتها، فأسرع ليخبرنا ويخبر أهالي القرى الأخرى.

-أنا خائفة على السائق، ربما لم يستطع الابتعاد بسيارته.

-لا تقلقي يا ابنتي، ثابت رجل شجاع ويعرف كيف يدبّر نفسه.

-هيا بسرعة، ادخلوا إلى القبو.

ضمتها خالتها إليها وهي تتنهّد بقلق:

-داليا، حبيبتي، لم أتوقّع أن تصلي متأخرة. تعالي يا ابنتي، في القبو مكان متّسع للحديث ولراحتك، لا بد وأنك متعبة.

-ألستم خائفين من قطيع الغيلان هذا؟

-إن شاء الله، ستمر الغمّة دون خسائر. لو كنت أعرف أننا سنتعرّض لاجتياحها، لما شجعتك على القدوم، ولكن لم نعرف بقدومها إلاّ قبل وقت قليل.

كان (أبو بلال) قلقاً فعلاً على اجتياح الغيلان للمنطقة، فالغول الجائع، شرس وقوته مضاعفة، ومتوحش بشكل مرعب.

نظر إلى "داليا" وهي منشغلة بالحديث مع خالتها وقد ظهرت عليها الحيرة فقال في نفسه: "كيف أتت هذه الصبية في هذا الوقت؟ إنّه حظّها أن تعيش حالة رعب مع هجوم تلك الحيوانات على بيوتات القرية"

وشوشه أحمد السعيدي:

- تفكّر بقدوم "داليا" ابنة أخت زوجتي؟

-وكيف عرفت؟

-أنت تنظر إليها بعطف بشكل شبه مستمر، وقد وضحت علائم الشفقة عليها، على وجهك.

-معك حق.

-ألن تهبط إلى القبو؟ إنّه أكثر أماناً؟

-لابأس، سأبقى معك.

سمعوا أصوات هدير يقترب ووقع مختلط لأرجل متلاحقة لحيوانات ثقيلة الوزن تهدر في مشيتها:

-يبدو أنها اقتربت من القرية.

-لديك هذه البندقية فقط؟

-وهذا السيف الذي كان يحتفظ به والدي.

-أتسمح لي باستخدامه عند الضرورة؟

-لابأس، تفضل. أرجو أن نظل بعيدين عن استخدام البندقية والسيف. ركّبت باباً حديدياً قوياً وأغلب الأهالي ركّبوا مثل هذا الباب، بعد هجوم الغيلان في العام الماضي.

-تمكنت من فتح بعض الأبواب ومهاجمة الناس؟

-كانت زوجتي والأولاد في دمشق عند أختها، وقد تمكّنتُ من قتل غول ضخم بوساطة البندقية، فتجمعت بعض جماعته في محاولة لاقتحام المنزل، فتمكنتُ من إصابة بعضها بجروح فتراجعت وهي تسحب قتلاها.

ازدادت الأصوات وعلا صراخ غير مفهوم:

-لماذا لم تهاجم قرانا الأخرى شرق الوادي؟

- ربما يعود السبب إلى الوادي، فهو عميق، وقد تحاصر فيه، ويقتل العديد منها، لو فكرت بالذهاب إلى الجانب الآخر.

-هل تجتاح هذه القرى لأجل الطعام، وما نوع الطعام الذي يمكن أن تقتنصه؟

-كل شيء، حتى اللحوم البشرية.

-معقول؟ وكيف هي أشكالها؟ هل أستطيع أن أراقب حركتها من مكاني هنا في الدار؟

-تعال. هذه هي الفتحة المناسبة لمراقبة تحركاتها وأشكالها.

كانت فتحة مرتفعة قليلاً عن مستوى الأرض، جلس قربها (أبو بلال) وهو متوتّر، يريد أن يتعرّف على هذه الغيلان، كما يسمّونها في هذه المنطقة.

رأى بعضها يدور ويتحرّك في الشوارع الضيقة وقد غطّيت أجسامهم بالملابس السوداء ولم تظهر وجوههم، كانوا طوال القامة، بعضهم لديه مخالب كبيرة، يشق بها فرائسه، كما أوضح السعيدي:

-ما داموا يرتدون الملابس ويتحركون على رجلين فهم بشر.

-والمخالب؟ وربما أشياء أخرى تبعدهم عن الأشكال الحقيقية للبشر.

-ويعيشون في جحور، أين تقع هذه الجحور؟

-ربما هي بعيدة قليلاً عن هنا.

ظهر الرعب على أبي بلال:

- انظر سقط اللثام عن وجه أحدها، يبدو قبيحاً بوجود هذا الشعر الأسود الذي يغطي وجهه، وكأن لديه فماً خارجاً عن الوجه، كفم الوحوش يا إلهي، أنيابه ظاهرة.

سمعوا أصوات خبط على الأبواب فقال السعيدي:

-لديهم ما يشبه الأعمدة القصيرة لدفع الأبواب.

-لماذا لم تطلبوا العون من السلطات للتصدّي للغيلان؟

-عرض علينا مدير الناحية إرسال سيارات شرطة ورجال مجهّزين بأسلحة فتّاكة للتصدّي لأي هجوم من هذه الكائنات الغريبة، ولكن المشكلة في موعد ظهورها.

-ما دمتم عرفتم أنها ستظهر الآن، لماذا لم يبلغه أحد منكم؟

-تعرف يا شيخ (أبا بلال) أن أجهزة الهواتف النقالة لا تعمل هنا، وأن الهواتف الأرضية لم تُركّب بعد.

-ولكن يوجد أعداد من الناس في هذه القرى ربما يصل العدد إلى العشرين ألفاً، وهذا مبرر لتهتم الدولة بأمنهم وسلامتهم وحمايتهم.

-تتحدث معي كأنك غريب عن المنطقة.

-أنا لا أتواجد كثيراً هنا، بسبب وجود أبنائي في العاصمة، أزورهم أحياناً وأقضي في بيوتهم فترات طويلة. الكل يعرف هنا أن العديد من الأهالي لهم أبناء في العاصمة، وأحياناً يزورونهم كما أفعل أنا.

-أعرف ذلك يا شيخ أبو بلال.

فجأة، انبعثت أصوات ضرب على الباب الحديدي في الخارج، ظهر الرعب على وجه أبي بلال فتمتم وهو يرنجف:

-يبدو أنهم يحاولون اقتحام بابكم.

-لا تقلق، لا أعتقد أنهم يستطيعون، أتمنى أن أرى أشكالهم ووجوههم، كأنهم لغز بالنسبة لنا.

-معك حق. تعال نطل عليهم من الفتحة.

وازدادت أصوات الضربات عنفاً:

-يبدو أنهم مصرّون على اقتحام بيتنا، رغم صمود الباب الحديدي.

سمعوا أصوات صراخ النساء وعويل الأطفال، كان بعض الغيلان يجرّون بعض النسوة وبعضهم يحمل أطفالاً يصرخون:

-يا إلهي، كأن قوتهم في هذا الهجوم مضاعفة. انظر إلى أجسامهم الضخمة وطاقاتهم التي يفرغونها في ضرب الناس الذين قبضوا عليهم.

كان أبو بلال يرتجف من هول ما يرى:

-أنا خائف أن يحطّموا الباب.

***

كانت "داليا" تعاني من الرعب، وهي تجلس في القبو وقربها ابنة خالتها التي كانت تحاول تهدئتها:

-لا تقلقي، ربما ساعة أخرى وترتاح المنطقة منهم سيعودون إلى جحورهم.

- لم اسمع في حياتي عن وجود غيلان عندنا، الغيلان في الحكايات فقط، ولا أعرف أنها موجودة في الحقيقة.

كان الباب الحديدي الهائل قد انهار تحت الضربات، ودخل كائن ضخم قبيح الخلقة يضع لثاماً على وجهه ويرتدي ألبسة سوداء.

أطلق أحمد السعيدي النار عليه فأرداه قتيلاً، وتحصّن أبو بلال بالسيف يقف في طريق الآخر، الذي عالجه السعيدي برصاصة أصابت كتفه فجعر وانتفض مهاجماً أبا بلال الذي حاول طعنه بالسيف فأمسكه الغول الجريح وسحبه منه ثم كسره. ولكنّ السعيدي عاجله برصاصة أخرى فسقط على الأرض يجعر قبل أن ينتفض ميّتاً. صرخ أبو بلال:

-سلمت يداك.

كانت هناك غيلان أخرى مهاجمة قد بدأت باقتحام البيت، قال السعيدي:

- انتبه يا أبا بلال إنهم غدّارون. ربما يريدون سحب القتلى فقط.

ولكنّ أحد الغيلان الداخلة هاجم أبا بلال فنهش كتفه. فصرخ متألّماً، هتف السعيدي:

-الشيخ مصاب، اسحبوه قبل أن يسحبه الغيلان، لا تفتحوا باب القبو إلاّ عندما أدفعه باتجاهكم.

قالت الزوجة وهي تسحب جسم الشيخ المصاب الذي دفعه أحمد في اتجاه باب القبو:

-انتبه لنفسك يا أحمد أرجوك.

ثم أغلقت باب القبو، قالت "داليا" وهي ترتجف من الرعب وقد رأت شكل الغيلان المرعب:

-أليس من خطر عليه؟

-لا. لا تقلقي يعرف كيف يدبّر أمره. نحن آمنون هنا في القبو. فلا تخافي يا ابنتي.

***

بعد أن أسقط منها ثلاثة قتلى، تردّدت الغيلان في الدخول وبدا أنّها أخيراً قرّرت الهجوم لسحب قتلاها، أخذ يطلق الرصاص وهو يصرخ:

- اخرجوا أيها الأنذال.

كان يتمنّى أن يحتفظ بإحدى جثث الغيلان، ليرى أصل وفصل هذا الكائن الغريب. ولكنّه لم يستطع فقد سحبت الغيلان جثث قتلاها وانسحبت.

ما إن أغلق الباب حتّى سمع صراخاً وعويلاً حين ميّزه شعر بالرعب:

-آه يا ويلي، أخذوا لؤي يا أحمد، أخذوا ابني.

كان صوت هدية أخته، فتح الباب وهو يرى هديّة تركض وراء قطيع الغيلان صرخ بها:

-هدية ابتعدي سيمزقونك.

-أحمد، أخي ابتعد أرجوك. إنهم وحوش سيمزقونك.

- يجب أن أنقذ لؤي.

أطلق ثلاث طلقات من البندقيّة على من يحمل لؤي وهو يركض بأقصى سرعته وخلفه صراخ هديّة الباكي:

- أخي أحمد. لا. لا. يا إلهي. أخي.

***

كانت الدماء تغطّي البيت والباب الحديدي ملقى، وقد ظهر الخراب من دخول تلك الكائنات الغريبة.

حمد أبو بلال الله كثيراً، أن من نهشه من الغيلان لم يقضم قطعة من كتفه وقد ظهرت آثار الأنياب الموغلة في الكتف. عقمتها سعدا، بالكحول، ووضعت صبغة اليود قبل أن تغطيها بالشاش:

-الحمد لله، أن لديكم هذه المعقمات للجروح.

-تحضرها سعدا معها من حمص وهي تعمل هناك، وتداوم دون أن يعرف والدها في عيادة ابن عمها الطبيب نادر الذي يقيم في حمص بالطبع دوامها مسائي فقط، لأنها تحضّر دروسها في الجامعة.

جهّزت سعدا إبرة فيها سائل قال مستغرباً:

-ماذا أيضاً يا ابنتي.

-هذه إبرة مضاد حيوي، حتى لا يلتهب الجرح.

-شكراً لك يا ابنتي، الحمد لله، أنا أفضل.

-ابق مرتاحاً، يبدو أن الغيلان خرجت من بيتنا.

استعدّت أم نعيم للخروج من القبو سألها الشيخ بلال:

-إلى أين؟

-سأطمئن على أحمد.

-خذي حذرك يا أم نعيم.

- لا تقلقوا .

لم تر أحمد. ولكنّها سمعت صراخ هديّة الباكي وهي تقترب من البيت:

-أخي أحمد. آه يا أخي.

-خير يا هدية؟ لماذا تبكي؟

-خطفوا ابني لؤي، وخرج أخي أحمد للحاق بمن خطفه من الغيلان، لإنقاذه، ومعه بندقيته، وكأنّه ابتعد خلف القطيع، آه يا إلهي.

قالت أم نعيم برعب:

-يا إلهي، كيف حدث هذا؟

-لا أدري. آه يا إلهي.

أدخلتها أم نعيم إلى الداخل وهي تشعر بالذهول. أحمد كان متعلّقاً بلؤي ولكنّ ما قام به الآن مغامرة غير محسوبة العواقب.

***

كانت المشاهد مرعبة في القرية، وقد اقتحمت الغيلان بعض البيوت وقتلت بعض أهلها وخطفت فتياتها ونساءها وصغارها. وأخذت كل ما في البيوت التي اقتحمها أفراد القطيع من مؤونة.

أما ثابت السائق فكان ينطلق بسيارته نحو قريته. وقد رأى عن بعد قطعان الغيلان تهدر مقتربة من القرية، كان خائفاً أن يمتد اجتياح الغيلان للمنطقة إلى قريته.

وهو في الطريق رأى مشهداً لم يتوقّع رؤيته في حياته. كائناً غريب الخلقة صغير الحجم، ممدداً أمامه على الطريق، ولّما اقترب منه رأى دماءً تنزف منه، كان من الواضح أنه غول صغير.

تردّد في إيقاف السيارة ووضعه في صندوقها، لأن هذه أول مرة يرى فيها غولاً وهو بعيد عن قطيعه. وهذه فرصة لرؤية شكله ومواصفاته قد يتمنّى أن يحظى بذلك الأستاذ أحمد السعيدي، أستاذ المدرسة الثانوية في المنطقة، والتي كان يدرس فيها ابنه الذي يدرس في الجامعة الآن.

كان الجميع يحبّون السعيدي لإخلاصه في مهنته، ومتابعته لأمور طلابه وكان ابن ثابت (دريد) متفوقاً بفضل أحمد السعيدي الأستاذ الذي يعطي بلا حدود.

عنّت له تلك الفكرة، فأوقف السيارة واقترب من الغول الصغير يتأكّد من موته ولكن الصغير انتفض في وجهه وبانت أنيابه ثم انطلق يعدو بعيداً رغم جرحه. وقد أرعب نهوضه المفاجئ ثابتاً.

انطلق بسيارته نحو القرية، ولم يبتعد كثيراً، حتى رأى في مرآة السيارة جموع الغيلان تتحرّك في الاتجاه الذي يسيرون فيه فشعر بالرعب، يجب أن يصل البلدة ويحذّر الأهالي من الاجتياح الجديد للغيلان.

وصل قريته القريبة بسرعة قياسيّة والسيّارة تهدر في طريق ترابي شبه معبّد وهو يصرخ في أزقّة القرية:

-يا ناس، يا ناس الغيلان في الدارة وستجتاح قريتنا رأيت قطعانها خلفي، لا وقت لديكم اختبئوا في بيوتكم وضعوا المتاريس. يا ناس يا ناس.

صرخت به أم بلال وهو يحاذي بيتها:

-متأكد يا ثابت؟ ألم يكن معك أبو بلال، أين هو؟

أوقف السيارة:

-أبو بلال في بيت السعيدي، لا تقلقي عليه.

-لماذا ذهب إلى هناك؟

-ذهبنا معاً لإيصال ابنة أخت أم نعيم إلى هناك. وأحب أبو بلال البقاء هناك لبعض الوقت.

قالت وهي تهزّ رأسها بارتياح:

-ما دام في بيت أحمد السعيدي، لست خائفة عليه. كنت تصرخ محذراً من قدوم الغيلان، هل رأيت تلك الكائنات في طريقك؟

-كانت ورائي يا أم بلال، قد تصل في أية لحظة. هاجمت الدارة قبل قليل، اغلقي الأبواب والمتاريس بسرعة. أنا ذاهب للبيت.

تحرّكت السيّارة من جديد بسرعة وأم بلال تردّد:

-يا ساتر، الغيلان؟ تلك المخلوقات المرعبة؟ يا رب أجرنا من شرها.

***

كان أحمد السعيدي، وهو يشهر بندقيته يركض خلف الغول الذي يحمل الصبي لؤي ابن أخته هدية، والصبي يبكي مرعوباً.

شعرت الغيلان بوجوده فانقضّت عليه، فأطلق النار على بعضها، ومنها الذي يحمل الصبي، فأصابه بمقتل فترك الصبي الذي هرب باتجاهه.

حمله وانطلق مسرعاً صوب تلال الرمل، وسط ذهول الغيلان التي تدفّق أفرادها في اتجاهه، وهو يحمل الصبي ويركض نحو تلال الرمل.

وفجأة دارت به الأرض وسقط في حفرة وهو يشدّ يده على الصبي ليجد نفسه يستقر على الأرض، وهو يشعر بآلام في ظهره، كان سقوطه فيما يشبه السرداب.

"يا إلهي الحمد لله، المهم نجوت منهم وأنقذت الصبي. حاولت أن أحتويه لدى سقوطي، كأن السقطة أثّرت عليه، الحمد لله إنه يتنفس".

لم ير كثيراً، كانت العتمة تغمر المكان، وليس سوى الضوء من الفتحة التي سقط من خلالها كان ظهره يؤلمه. ولكن يجب أن يكتشف المكان بعد أن يرتاح قليلاً.

***

حكت هدية لزوجة أحمد السعيدي كيف أن أخاها حاول إنقاذ لؤي الصبي، ثم اختفى، قالت أم نعيم وهي تهدّئها:

-أحمد محترف، يعرف كيف ينقذ نفسه، وسينقذ لؤي. لا تقلقي.

-إلى هذه الدرجة أنت واثقة؟

-إن شاء الله. ادخلي يا هدية ولننتظر، سيعود أحمد ومعه لؤي.

-إن شاء الله.

-هذه دالية ابنة أختي، أتت في زيارة لنا في وقت استثناء هجم فيه الغيلان علينا، تصوّري دعتها ابنتي لتدرس هنا، معها، على أساس أن الهدوء والراحة متوفران هنا.

قالت دالية:

-لابأس يا خالتي، المهم أن يعود الأستاذ أحمد بخير.

رأت هديّة أثاثاً محطّماً، وآثار دماء. سألت أم نعيم:

- دخلت الغيلان إلى هنا؟ آه يا إلهي.

-أطلق عليها أحمد النار فصرع بعضها، وحاول الاحتفاظ بجثّة منها على الأقلّ. وشاركه الشيخ أبو بلال الذي أوصل وثابت سائق الحافلة دالية إلى هنا، وقت هجوم الغيلان ولم يوافق أحمد على ذهابه في هذا الوقت العصيب، وحين اقتحمت الغيلان منزلنا وانهار الباب الحديدي قاوم مع أبي نعيم بقوّة، وتعرّض لعضّ أحدها الذي غرز أنيابه في كتفه، والحمد للّه هو بخير يرقد في القبو تعلمين مهارة سعدا في العلاج الإسعافي.

-لماذا أراد أخي أحمد الاحتفاظ بجثّة أحد الغيلان؟

قالت سعدا:

-كان يحلم يا عمتي بأسر إحداها، لتطبيق دراساته عليه، تعرفين كم والدي محبٌّ للعلوم.

-أعرف، حماه اللّه وأعاده بسلام.

وفي القبو كان أبو بلال ممدّداً على السرير، سألته هديّة:

-تتألم من كتفك يا أبا بلال؟ حكت لي أم نعيم عن بطولتك في التصدّي للغيلان.

قال بخجل:

-نعم. إلى حدّ ما، بارك اللّه في سعدا، بدت محترفة في علاج آثار أنياب الغيلان.

***

كان الوضع يزداد صعوبة في ذلك السرداب الغامض، وأحمد يحاول أن يستعيد ثقته بنفسه، ولؤي مازال غائباً عن الوعي.

خفّت آلام ظهره قليلاً، ولا أثر لحركة حوله، والظلام يتكاثف، وقد أسقط في يده. وفجأة تحرّك لؤي وأخذ يهمهم بعبارات غير مفهومة:

-لؤي، لا تخف أنا معك يا بنيّ.

بدأ الصبي يبكي وهو يرتجف ربما من تأثّره بخطفه من قبل أولئك الوحوش مرعبي المنظر وأخذ يهمهم باسم أمّه، هدّأه السعيدي:

-ستراها يا بني. لا تخف أنا معك وسأوصلك إليها.

-أنا عطشان.

-سأبحث لك عن الماء، حاول أن تنام.

شعر أن الوضع شديد الصعوبة.

***

كان قلقاً على الناس في بقية القرى وليس من وجود للسلطات في المنطقة، حتى تصدّ هذه الكائنات التي تظهر فجأة فتسبب الكوارث، ثم تختفي.

لم يتمكّن أحد من معرفة أصلها ومنشئها، وإلى أية فصيلة حيّة تنتمي، فهي تشبه البشر وترتدي ألبسة شبيهة بالبشر ولكنها متوحشة، لديها أنياب.

ولماذا تخطف النساء والأطفال؟ ولأي سبب؟ هذه أسئلة كان السعيدي يبحث عنها، ويحلم بالقبض على غول صغير، ليدرس فصيلته.

ماذا يفعل أحمد السعيدي الآن؟ بدأ الظلام يخيم وليس معه ثقاب أو أي شيء يمكن أن يشعل به شيئاً، الرطوبة عالية رغم أنّه في صحراء يجب أن تكون رمالها جافة. نام لؤي أخيراً، ولكنّه كان خائفاً عليه حين يستيقظ، سيطالب بأمه، وربما بالطعام. الفتحة التي أتي منها الضوء أصبحت بلا فائدة. هل يتّجه بشكل عشوائي وفي ظلام دامس إلى مكان آخر؟ أم يبقى في هذا المكان حتى الصباح؟ احتار في نفسه وهو يضم الصبي النائم إليه.

***

وفي بيت السعيدي كان الوضع صعباً. كانت هديّة تبكي وأم نعيم تحاول تهدئتها، حين طرق الباب أحد شبّان القرية فقالت:

-الباب محطّم تفضل ادخل.

دخل وهو يهمهم:

-الخالة هديّة، رأيت الأستاذ أحمد يحمل لؤي ويهرب به بعيداً عن الغيلان، حكيت ذلك لوالدي، فطلب مني البحث عنك وإبلاغك بذلك، ذهبت إلى بيتكم فقيل لي أنك هنا، لذلك جئت أبلغك أن لا تقلقي.

-شكراً لك يا جلال، وفي أي اتجاه ذهب أخي أحمد.

-جهة التلال الغربية. ولم يكن أحد من الغيلان يتبعه. رأيت ذلك بعيني.

قالت أمّ نعيم:

-الحمد للّه هذا يطمئننا، شكراً لك يا بني.

-تحتاجون لمساعدة؟ يبدو أن الباب يحتاج لتركيب.

-أعرف أنّك ماهر بالنجارة. يمكنك مساعدتنا؟

-بالتأكيد سأساعدكم، سأحضر لوازم النجارة من البيت وأعود.

قالت سعدا:

-يملك والدي صندوقاً خاصاً بذلك، ربما يفيدك يا جلال.

-لا بأس يا سعدا، أرني الصندوق.

ورغم كل الاحتياطات التي أخذها سكان قرية ثابت، فإن اجتياح الغيلان كان أكثر وحشية من اجتياح (الدارة)

ازدادت القصة تعقيداً، والغيلان بقطعانهم المتدفقة تهاجم القرى وتنهب المؤن، وتأخذ النساء والأطفال وتعود أدراجها.

تمكّن ثابت من مقاومة الغيلان الذين اجتاحوا قريته الصغيرة، بوضع متاريس خلف الباب، وإطلاق النار من بندقية الصيد التي يمتلكها والتي لم تصب منهم مقتلاً.

قاومها السكان بكلّ قوة، ولكن الفرقة التي اجتاحت القرية، كانت أشدّ شراسة من غيرها، خطفت بعض النساء والأطفال، وقتلت من تصدّى لها، ونهبت كل مؤن الناس، ثم انسحبت مخلفة وراءها الكثير من الفوضى، وهي تسحب قتلاها أيضاً:

-يا ناس، لندفن قتلانا ونرمّم بيوتنا، رجعت الوحوش إلى مخابئها وربما لن تهاجمنا من جديد قبل أشهر، يجب أن نجتمع في الساحة، لنقرّر الخطوة التالية.

قالت أم بلال:

-الكثير من النسوة خطفهن ذلك الغول الضخم مع جماعته. يجب أن نعرف مخابئها وهل بإمكاننا لو أبلغنا الدولة أن نهاجمها ونبيدها؟

-يا أم بلال، حاولنا كثيراً في السابق، نحن نعرف المنطقة التي يختفون فيها ولكننا لا نعلم المكان الدقيق الذي يتسلّلون منه إلى داخل الأرض.

-يجب أن نفعل شيئاً، لا مجال للسكوت على هذه الاستباحة الدائمة من كائنات لا نعرف عنها شيئاً. لا بدّ وأن هناك إمكانية لقهرها، مادامت تموت بالرصاص.

-معكم حق، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل إن لم تساعدنا السلطات. نحن عزّل بلا سلاح نتصدّى به لتلك الكائنات، وهي قوية متوحشة لا ترحم أحداً؟

-ولماذا تأخذ تلك الكائنات، النساء متوسطات السن والأطفال؟ لماذا؟ هل يستخدمونهن؟ وماذا عن الأطفال؟

-لا يعرف أحداً سرّ تلك الكائنات، وأين تعيش وكيف تظهر فجأة؟ ولماذا تهاجمنا دون أن نتوقع وقت ظهورها واجتياح قرانا وهذا الخراب الذي تحدثه؟ وكيف تسرق مؤونتنا، وتقاتل من يقاومها وتمثل به بعد قتله بوحشية؟

قال ثابت وهو يلوّح بيديه صوب جثث الضحايا التي جمعها الشبّان:

-المهم أن نعجّل في دفن موتانا، ونرمّم بيوتنا ونستعد جيداً، من أجل المقاومة بكل قوة لجحافل هذه الكائنات المتوحشة.

-معك حق يا ثابت، خاصة وأنها في هذه المرّة كانت وحشيتها وأعدادها أكثر من أي وقت مضى بأضعاف، كانت تهاجم قرية، ثم تختفي، الآن هاجمت عدّة قرى وبأعداد مرعبة. ما السبب في زيادة أعدادها؟ هناك سرّ. ويجب أن نبلّغ السلطات بذلك.

***

قرّر أحمد السعيدي أن يقضي الليل تحت الفتحة التي سقط منها، وكان لؤي نائماً بعمق، وهو حذر أن لا يتحرّك فيوقظه، كان يشعر ببعض الآلام في ظهره، وقد تيبّس على الأرض الرطبة التي لا يبدو أن جداراً قريباً من المكان الذي وجد نفسه فيه بعد سقوطه وهو يحمل الصبيّ الصغير لؤي.

لم يتمكّن من رؤية السماء، كانت هناك نبتة شوكية كبيرة، غطّت قليلاً على الضوء الخافت القادم من الأعلى. شعر بالحاجة للنوم، فغفا بحذر، وهو في وسط بيئة غامضة لا يعرف عنها شيئاً.

وبين النوم واليقظة سمع أصواتاً وضجة بعيدة غير مفهومة، ولكنه اعتقدها ضمن سلسلة تهيؤات أتته في هذا الوسط الغامض.

عادت الأصوات بعد فترة، وبدأت تقترب من مكانه ولؤي، فنهض من رقدته محاذراً أن يوقظ لؤي. لم يكن هناك سوى الظلام، أين يجب أن يبتعد إن اقتربت الأصوات الغامضة منه؟ وأين سيختبئ؟

فوجئ بعد لحظات أن الأصوات تقترب بأسرع ممّا يتوقّع، وأخذ يميّز الأصوات شيئاً فشيئاً:

-سنفعل يا سيدي، أصبح لدينا مجموعة من النساء والأطفال.

-رصدت الكاميرات والأجهزة وجود غرباء في هذه الناحية، ولا أدري من أين أتوا؟ فتشوا الأمكنة القريبة كلها.

-سنفعل يا سيدي.

شعر أحمد بالرعب يبدو أنهم كشفوا وجودي مع لؤي، ماذا سيفعل الآن؟ يجب أن يبحث عن ملجأ: "من هؤلاء؟ وماذا يفعلون هنا؟ ولماذا لديهم أجهزة متطورة؟"

-اسمعوا جيداً، أظهرت الكاميرات التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء وجود رجل وطفل، كيف جاءا إلى هنا؟ ولا نعرف، كيف تمكّنا من الهرب من مطارديهم؟ وكيف؟

فكّر أحمد بذهول: "مطارديهما؟ ماذا يقصد؟"

-سنبحث جيداً يا سيدي، لا تقلق.

-لا تؤذوهما أبداً.

-بالتأكيد يا سيدي.

-السراديب كثيرة، هما لا يظهران لنا عن طريق كاميرات الأشعة تحت الحمراء، ربما كانا ضمن سرداب يحجب عنّا رؤيتهما.

-لم نرَ صورهما.

-لم يكن أي شيء واضحاً، إلاّ بعد أن تفقّد الزعيم الملفّ كعادته مساء كل يوم، فلحظ كتلتين متحركتين، وميّز بتقنيّة عالية بعض التفاصيل التي لم تكن واضحة تماماً عن رجل وطفل.

-لنتابع سيرنا، السراديب هنا تتفرّع كثيراً.

-هي سراديب قديمة جداً، ربما فيها آثار ونحن لا نسيطر عليها هنا لم نفكر بتحديد رقعة وجودنا إلى هنا.

كان أحمد السعيدي يستمع لتلك الحوارات، وقلبه يخفق من القلق، وبين يديه ذلك الصبي الصغير، سيتحرك لجهة أخرى مادامت السراديب مفتوحة. غمغم الصبيّ:

-أنا جوعان.

أجابه بهدوء وبصوت خافت:

-سيأتينا الغذاء بعد قليل، لا تقلق اهدأ الآن وحاول أن تنام قليلاً، سيصلنا الطعام.

-أين نحن؟ لا أرى شيئاً.

-الكهرباء مقطوعة الآن، ستأتي بعد قليل. وعندما تأتي الكهرباء يأتينا الطعام.

-سنأكل بعد قليل؟

-نعم يا حبيبي. حاول أن تنام قليلاً.

عاد الصبيّ إلى نومه. نهض بهدوء من جديد وهو يحمل الصبيّ، وسار في الاتجاه المعاكس للأصوات، وهو يشعر بالقلق، رغم أنه جائع ومتعب ويعاني من بعض الآلام في ظهره، إلا أن هؤلاء الناس قد يكونون عدوانيين، وليسوا أصدقاء.

لماذا يتواجدون تحت أرض الصحراء؟ ولماذا لم يرهم أهالي المنطقة من قبل؟ ولماذا هم في السراديب وليس فوق سطح الأرض؟

كثرت الأسئلة المرهقة وهو ينتقل بحذر ولؤي يغفو على كتفه.

***

كانت "داليا" متوترة قلقة وقد أتت من أجل الانعزال للدراسة في بيت خالتها، وحدث ما حدث من هجوم الغيلان الذي لم تتصوّر وجود مثل هذه الكائنات، ولا معاناة بيت خالتها منها كما هو الحال بالنسبة لكل أهالي القرية في تلك المنطقة الصحراوية. لحظت سعدا توتّر "داليا" وقلقها:

-ما بك مكتئبة يا "داليا"؟ يجب أن تريحي أعصابك.

-لا أدري ما الذي حدث لي؟ أشعر أنني لست على ما يرام. أتعلمين يا سعدا أنني لم أكن أتصوّر ما يجري هنا في حياتي، ثم هناك العم أحمد الذي اختفى؟ ولا نعلم هل هو حيّ، أم قتلته تلك الكائنات المتوحشة؟

-الذي تتكلمين عنه هو والدي أحمد السعيدي، الأستاذ في المدرسة الذي يحبه الجميع. وقد اختفى قبل ساعات مع الصبي ابن عمتي هدية، أقول لك كل ذلك، لأصرّح لك ما في قلبي، أنني لست خائفة عليه ولا أشعر بقلق تجاهه. رغم أنه قد يكون في فم الخطر.

-لماذا هذه الثقة؟ تلك الكائنات شرسة ولا ترحم.

-لأنني أعرف أبي بشجاعته وحنكته، لقد مرّ بالكثير من الأخطار وعاد إلينا سالماً غانماً.

-ولا تشعرين بالقلق؟

- ليس قلقاً حقيقياً، إنه شبه قلق، هناك نوع من التخاطر بيني وبين والدي، هذا التخاطر يؤكد لي أنه بخير، وأنه لم يتعرّض بعد لأي خطر. لذلك أرجوك يا"داليا" ابدئي بالدرس، لديك مواد كثيرة وجئتِ إلينا لترتاحي.

-لا أستطيع الدراسة وسط قلقي على العم أحمد والصبي.

دخلت هديّة وقد بدا عليها الهدوء كأنّما أعطتها أم نعيم الخبر الذي أكّده جلال كثيراً من الأمل:

-كيف حال أهلك يا "داليا"؟

-بخير يا خالة، المهم أن تكونوا أنتم بخير.

-سنكون بخير عندما يعود أخي أحمد ومعه لؤي.

سألتها "داليا":

-وليس من خبر؟

-هناك من أكد أنه اتجه وهو يحمل الصبيّ صوب التلال، واختفى هناك. وتلك التلال يسمّونها بالتلال الغامضة، بعض الناس غامروا بالدخول في مضايقها ووديانها، ولم يعودوا.

-ألا يشكّل ذلك خوفاً من هذا الخبر، أن العم أحمد اتجه صوب التلال؟

-زار التلال من قبل، ولم يحدث له شيء.

-إن شاء الله يعود سالماً غانماً. الغريب أن منطقتكم خالية من أبراج الهواتف النقالة، بل وحتى من خطوط الهاتف العادية.

- رغم ذلك تأقلمنا مع هذا الوضع. في كل المناطق قبل سنوات، لم يكن أحدٌ يعرف الهاتف الجوّال، أو حتى الهاتف العادي وخاصة في المناطق البعيدة. تعالي معي أنت وسعدا، إلى البيت، لبعض الوقت قد نسمع خبراً، قريباً، عن أخي أحمد.

-ولكن.

قاطعتها سعدا:

-لن تدرسي اليوم، الوقت متأخر، سنجلس بعض الوقت وتتعرّفي على أسرة عمتي. هيّا.

ضمّتها أم نعيم إلى صدرها:

-قلبي عليك يا "داليا" جئت لتتفرغي لدراستك، وحدث ما حدث.

-لا بأس يا خالتي أنا بخير، إن شاء الله يعود الأستاذ أحمد سريعاً.

-إن شاء الله.

قالت هديّة:

-عرضت عليها وسعدا أن يذهبا معي لبعض الوقت.

همست مشجّعة:

-لا بأس يا ابنتي، اذهبي وسعدا، هدية مثل أختي، امرأة رائعة. قد تستطيعان وسعدا التخفيف عنها من وراء اختفاء لؤي.

***

حاول أحمد السعيدي وهو يحمل الصبيّ، الوصول إلى جدار السرداب الذي يتواجد فيه وحين تحسّس الجدار الرطب أخذ يمشي في الجهة المعاكسة وهو يتلمّس الجدار بيده الأخرى. كانت الضجة تزداد.

ولم تظهر له الإضاءة بشكل واضح، وفجأة عمّت الأضواء الجهة التي يتواجد فيها فحاول الهرب لولا أن سمع صوتاً هادراً يهتف به:

-قف، أنت محاصر. لا تتحرّك.

-أحيطوا به بسرعة واجلبوه إلى هنا. يبدو أنه يحمل ولداً على كتفه.

استيقظ الصبيّ وبدأ يبكي وقد لحظ الجمع الغريب من حوله، وشوشه أحمد:

-لا تخف يا بني، إنهم أصدقاء.

صرخ به أحدهم:

- أنزل الصبي سنقيّدك.

-سيملأ الدنيا صراخاً إن تركته، أنا لا أحمل سلاحاً.

يبدو أن بندقيته سقطت منه في مكان لم يكن قريباً من مكان سقوطه فأضاعها. اقترب منه رجل آخر كان يبتسم:

-ماذا تفعل هنا؟ كأني أعرفك، أنت أستاذ العلوم في المدرسة، أحمد السعيدي؟

-نعم.

-وكيف جئت إلى هنا؟

-هربت من الغيلان لأنجو بهذا الصبي. ابن أختي وقد حاولوا خطفه. فسقطتُ في حفرة لأجد نفسي في هذا السرداب.

-مفهوم.

-وكيف عرفتني؟ هل رأيتك من قبل؟

-بالتأكيد أنت تعرفني.

قال بصوت عال موجّهاً كلامه للرجال الذين يحملون سلاحاً:

-أنزلوا أسلحتكم، وساعدوا الأستاذ أحمد، سنعود إلى المركز. لا تخف يا صغيري.

قال السعيدي:

- إنه جائع وعطشان، قضينا ساعات في العتمة، وأنا أشعر بآلام في ظهري، يا إلهي، كيف لم انتبه أنت الدكتور (أنور) أستاذنا في الجامعة، أستاذ الخلية. آه. يا إلهي، ماذا تفعل هنا يا دكتور؟

-اهدأ يا أستاذ أحمد. سنحكي كل شيء بالتفصيل عندما نصل المكتب.

أشار لإحدى النسوة اللواتي يقفن بحياديّة:

-احملي الصبي يا رائدة.

-حاضر يا سيدي، تعال يا بني.

بكى لؤي ولكنّ خاله هدّأه:

-لا تخف، ستعطيك شوكولا.

قالت رائدة: ـ معي شوكولا فعلاً تفضل يا صغيري.

عبر سراديب ضيقة، أخذت الأنوار تشع داخلها، رأى السعيدي مراكز مختلفة لدراسة الخلية، وعلم الحياة، وأشكال الحياة الجديدة بصور مجسّمة، وكانت هناك صناديق حديدية فيها حيوانات مختلفة، أدارت رائدة وجه الصبي عنها حتى لا يراها ويخاف.

كان مركزاً ضخماً يحوي مراكز علمية صغيرة، تنتشر فيه جماعات بلباس أبيض، يبدو على الجميع الاهتمام بما يقومون به.

أدخلوه ولؤي إلى غرفة استراحة وأحضروا له وللؤي ثياباً، نظف السعيدي وجه لؤي وغسل له رأسه ويديه، وجلس معه يتناولان طعاماً بدا شهياً لهما.

فجأة انبعث صوت إنذار طغى على المجمّعات، وحضر الدكتور أنور يراقب الكاميرات والأجهزة، ثمّ صرخ بمكبرات الصوت:

-استعدوا جميعاً، هناك اختراق أمني.

أجابه صوت أحد المهندسين:

-إنه في القسم الشمالي من المركز. انظر يا سيدي، يبدو كأنه غول ضخم.

-حاولوا القبض عليه حيّاً، وأمّنوا كل المداخل بشبكة اللازر، وانتبهوا حتى لا يحدث اختراق آخر. كل الجهاز الأمني مستنفر.

***

وهكذا قبضوا على الغول، بعد تخديره. كان قد تمكّن من النفوذ خلال ثغرة، سدّوها بالإسمنت المسلّح.

كان مركزاً علمياً متطوّراً، أنشئ لدراسة طبيعة الحياة الغريبة التي تتوالد في الصحراء، وقد حكى الدكتور (أنور) للسعيدي شيئاً عن بدايات بناء المركز في تسعينيات القرن الماضي.

-كانت المنطقة هنا تفرّخ أشكالاً من الحيوانات المشوّهة وبعضها قريب الشبه من البشر.

-وماذا كانت النتيجة؟

-كانت طائرات من الجوّ قد ألقت ـ بالتأكيد عن عمد - قنبلة حيوية، فيها بيوض ويرقات وخلايا مدجّنة داخل معامل بأهداف مجنونة، فجّرت خراباً في الحياة هنا، ومنها أتت هذه المخلوقات الضخمة المسمّاة بالغيلان.

-معقول؟ استغرق الأمر طويلاً؟

-كانت هناك على الأرض، مجموعات سياحية، تتظاهر باكتشاف المنطقة وانضم إليها صيادون أمراء من دول نفطية، وضعوا خيامهم ونصبوها وسط منطقة التوالد.

-ولماذا يهاجمون القرى كل فترة وينهبون المؤن، ويقتلون الناس ويخطفون الأطفال والنساء؟

- يجب أن تأتي معي، اترك لؤي مع رائدة، يبدو أنه اطمأن لها وهي تداعبه وتعطيه الألعاب، سأريك الكثير من الأسرار التي قد لا تخطر على بال أحد.

فكّر السعيدي "يا إلهي، كل ذلك يحدث عندنا ولا أحد ينتبه" تابع الدكتور أنور:

-سوء النيّة المبيّتة لتخريب هذه البلاد لم تبدأ أمس أو اليوم أو ربما لن تقف عند ذلك في المستقبل.

***

وفي الجانب الآخر كان "ديفيد" منزعجاً، وهو يستمع لجواسيسه:

-جردوه من كل شيء، وخدّروه، اكتشفوا كل الشرائح التي وضعناها بشكل خفي، لنقل الصورة والصوت إلينا. الغول الآن مخدّر.

-حاولوا فتح ثغرة ثانية ومحاولة النفوذ إليهم، يجب أن نعرف إلى أية جهة هم يتبعون، لن نتوقّف عن تفجير مراكزهم البحثية، هم يشكلون خطراً علينا.

-نستطيع بطائرة مسيرة بها صواريخ تخرق العمق تدمير مركزهم بلحظة ولكن هذا قد يكون خطراً على المنطقة، ربما حوت مخابرهم مواد كيماوية سامة.

رنّ الهاتف إلى جوار "ديفيد"، كان من دولة أخرى ارتجف في داخله قبل أن يرفع السمّاعة:

-سيّدي.

-اسمع يا "ديفيد" أريد حلّاً سريعاً لوجودهم، اعتقدناهم جزءاً من الدولة، وتواجدهم لأسباب لها علاقة بالكشف عن الغاز والنفط والثروات المعدنية. هكذا أظهروا أنفسهم.

-سترى يا سيدي كيف سنضع حدّاً لهم.

***

تمكّن الدكتور أنور عن طريق طائراته الصغيرة المسيّرة والشبيهة بالذباب الطائر أن يخترق تحصينات المدعو ديفيد، الذي لا تبعد مراكزه عنه سوى عدّة كيلومترات.

وتعرّف على بعض الأسرار هناك، حيث ينتشر الغيلان ضمن مجموعتين:

- مجموعة القادة الشبيهة بالبشر.
- مجموعة التابعين الشبيهة بالقرود الضخمة ناتئة الوجه حادّة الأنياب منتصبة القامة.

ولم يتمكّن بعد من معرفة سرّ أسرهم للنساء والأطفال. وما الفائدة التي يحصلون عليها من هؤلاء النساء والأطفال.

تلقّى فجأة اتصالاً من رائدة:

-سيدي، أنا داخل المكان الذي تجمّع فيه النساء والأطفال.

-أين؟

-في سراديب "ديفيد" ومخابره.

-تركتك مع الصبي لؤي، لماذا خرجت دون إذن؟

-كانت صدفة، أن أتابع موظفاً جديداً أتانا من العاصمة، وهو يلتفت حوله يميناً ويساراً، وهو يراقبني أنا ولؤي. وعندما سألته عن سبب مراقبته لنا قال:

"لا شيء، أنا جديد هنا، ولكني مستغرب وجود الطفل هنا، بعض الأطفال يتجمّعون في أمكنة كمدرسة صغيرة وسط هذه الصحراء يجب أن لا يكون هنا، يجب أن يكون معهم"

قلت له: "هو ابن أختي، أين هذه المدرسة التي تحكي عنها؟"

قال: "ليست بعيدة. هل أنت متزوجة؟"

قلت: "لا. وأنت؟"

أجاب: "لا. ولماذا لم تتزوجي؟"

قلت: "عملي هنا عزلني عن العالم. أنا أبحث عن عمل آخر الرواتب هنا ضعيفة"

قال هامساً وهو يلتفت حوله حتّى لا يستمع إليه أحد:

"متأكدة، أستطيع أن أدبر لك عملاً براتب ضخم"

أكملت رائدة:

-هذا ما جرى، دخلت المكان لأتعرف على ما يحدث هنا، عندهم، وأطلب منك السماح ببقائي، حتى أعرف المزيد من الأسرار.

-يا مجنونة، لماذا لم تأخذي إذناً مني، وجودك هناك يشكّل خطراً عليك. قد لا يصدقون اندفاعك لعمل جديد.

-كما اخترقوا أمننا، ربما نستطيع اختراق أمنهم.

-قد لا تكون مكالمتك لي، بعيدة عن مراقبتهم.

قالت: ـ لا تقلق يا سيدي.

ثمّ أغلقت الهاتف.

***

عرف السعيدي أن معارك علميّة تجري تحت أرض الصحراء، وأن الكثير من الاختبارات تجري في المنطقة الأخرى حيث تنشط عملية اللعب بالجينات لإنتاج أمساخ مدجّنة.

من بين هذه الأمساخ تلك الغيلان التي تهاجم قطعانها القرى كل فترة، ولكن تساؤل السعيدي عن سبب خطفها للنساء والأطفال، لم يعرف الإجابة عنه بعد.

عندما نام من شدّة التعب وهو يحضن (لؤي) رأى أحلاماً مرعبة عن كائنات تخرج من بيوضها وتهاجم الناس في (الدارة) - قريته - والقرى المجاورة.

ورأى (أبا بلال) يقاوم تلك الكائنات مع مجموعة من النساء اللواتي حملن العصي والهراوات. ثم استيقظ فجأة، فوجد نفسه مع لؤي النائم في منطقة منعزلة قريبة من الدارة. كانت أشعة الشمس الحادّة فوق رأسه، والشمس ترتفع لتزداد حرارتها مع صوت يغنّي أتاه من رحم الغيب. كانت بندقيته الضائعة إلى جانبه أيضاً.

"يا إلهي، هل كنت أحلم؟ بالتأكيد لا. الملابس التي أرتديها غير ملابسي ولؤي يرتدي ملابسه الشبيهة بملابس المدرسة؟"

تحرّك لؤي مستيقظاً، ضمّه إليه:

-أنا هنا يا بنيّ. سنذهب إلى ماما.

كان لؤي يحمل كيساً مغلقاً، فتحه السعيدي مستغلاً عودة لؤي للنوم، كان يحوي بعض الشوكولا والبسكويت همهم:

"لم نكن نحلم. ولكن لماذا وضعونا هنا؟ وكيف؟"

ظلّت استفساراته تزداد وهو يتجه صوب (الدارة) قريته القريبة. لا ريب أن الدكتور (أنور) أراد أن يبعده عن تلك المراكز، حتى لا ينشغل وينسى حياته في قريته؟

كانت التساؤلات في داخله كبيرة ـ وهو يستعد لحمل لؤي للانطلاق نحو (الدارة) عثر على ورقة صغيرة مكتوبة على الحاسوب بخط رقعي:

"صديقي الأستاذ أحمد السعيدي، اعتبر أنك كنت تحلم، وكل ما رأيته أرجو أن يبقى سرّاً بيننا، نحن نجابه قوة مرعبة من الشر، ولا ندري هل سننتصر عليها؟ أرجو أن تنتبهوا وتقاوموا جحافل الغيلان، التي نحاول مقاومتها معكم ولكن بأساليبنا، قد نلتقي يوماً"

استقبلته القرية كالفاتحين، وهدية تفتح ذراعيها لاستقبال ابنها الضائع.

-يا حبيبي الصغير.

-ماما. أعطتني رائدة الحلوى.

سألته هديّة بصوت منخفض:

-عن أي رائدة يتكلم؟

قال بارتباك: ـ هي صبية من البدو ساعدتنا.

"قد ينسى الصبي ما مرّ عليه سريعاً، ولكني لن أستطيع النسيان، وسأظل أنتظر ذلك اليوم الذي ألتقى فيه الدكتور أنور من جديد، وأعرف الإجابة عن تساؤلات لا تزال تعتمل في صدري. يا إلهي، الآن أعرف أن مخابر الشرّ لقوّة عظمى شريرة تريد أن تدمرنا وتدمر المنطقة بأمساخها المهجّنة، بجينات تطوّرها في مخابرها"

سلّمت عليه "داليا":

-حمداً لله على سلامتك يا عم أحمد.

-شكراً لك يا "داليا"، أرجو أن تتمكّني من الدراسة هنا مع سعدا.

-لا يا عم. أرسلت في طلب العم ثابت، لأعود معه في رحلته التالية.

-لا تحكي شيئاً عمّا رأيته هنا، حتى لا ينتقل الخوف إلى أهلك.

قالت أم نعيم: ـ أوصيتها بذلك. لا تقلق.

-وأين (أبو بلال)؟

-ذهب هذا الصباح إلى قريته، وأوصيته بأن يأتي ثابت إلينا لاصطحابها للعاصمة.

قالت "داليا":

- بالتأكيد لن أذكر شيئاً عن الغيلان تبدو الحكاية غير منطقية، إن تكلمت عنها كحقيقة.

قال السعيدي ساهماً:

-معك حق، المهم أن لا تقلقي علينا، تعلّمت من غيابي القصير كيف أقاوم الغيلان وأنتصر عليهم.

***

في غابة الذكريات

كان الطقس خريفياً، وأوراق الأشجار الذابلة تتساقط تاركة تحت الأشجار بساطاً أصفر، يسمع المرء وقع أقدامه بوضوح فوق الأوراق الممتدة بين الشجرات المتشابكة.

لم يكن هناك طريق للمرور فيه للوصول إلى بيت عمه على الجبل، سوى ممر ضيّق يسع الغادي والرائح، ولا يمكن أن يعبره اثنان متجاوران لضيقه.

ترك السيارة في آخر الطريق المعبّد، ودخل الغابة التي تحمل له ذكريات طفوليّة مازالت حيّة في ذاكرته، أشجار معمّرة ازداد عمرها ولكنها مازالت صامدة على عاديات الزمن.

كان يخاف وأقرانه من الأفاعي التي تظهر في الصيف بين الأشجار، ويتأمل ألوان الأفاعي الصغيرة وهي تتسرب من بين الأشجار، فيركض خارجاً من الغابة خوف أن تتجه نحوه.

امتلأت تلك الفترة بذكريات ظلّت في رأسه، عن فترة راقب فيها الطبيعة ونباتاتها وحيواناتها وتربة أرضها وكهوفها وأوكارها. وهو غارق في أفكاره سمع صوتاً لحيوان زاحف ضخم ينزل من الأشجار ويختفي في الدغل.

لم يميزه، اعتقده سحلية ضخمة، أو ربما أفعى. ولكن هذا الصوت تكرّر عدة مرات ليرى أفاعي بأطوال مختلفة، تختفي في نفس الدغل. كان قريباً من نهاية الغابة، فلم يكترث وقد تعوّد أن لا يخاف إلاّ من خطر يباغته في الوجه.

حالما خرج سمع ضحكات نسائية، كانت عجوزاً مشردة، بأسمال ممزقة مرقعّة، تضحك.

– رأيت تلك الحيوانات اللعينة؟

– آه. نعم. يا خالة؟

– لم تعد الغابة بمأمن من شرورها، وقريباً ستزحف وتهاجم الناس في كل مكان. مساكين لا يعلمون ما يجري. أنت لقمان؟

قال بارتباك:

– وكيف عرفتني؟ من تكونين؟

– المجنونة، كما يطلقون عليّ في القرية. أنا سعدا، تتذكرني؟

– الخالة سعدا، كيف لا أتذكرك، كنت صديقة أمي، رحمها الله.

– نعم. كنت صديقة أمك، تلك المرأة الطاهرة التي تعذّبت كثيراً في حياتها. رحمها الله.

– أرجوك اهدئي يا خالتي. تبدين بائسة، أتحتاجين لمساعدة؟ أنا مثل ابنك. أرجوك يا خالتي.

– قد تغيّر رأيك بي، حين يقابلك الأهالي، ويقولون عني ما يقولون سامحهم الله. لا داعي أن تعطيني مالاً لا أستطيع إنفاقه، ولكن أحضر لي طعاماً، وبعض اللباس، دون أن تذكر اسمي أرجوك. الجميع دون استثناء يعتبرونني ضالة.

– يا الله، لماذا يا خالتي؟

– قصتي طويلة، وتبدو في عجلة من أمرك. حين عودتك من زيارتك سأراك هنا. اذهب، اذهب يا بني واحضر لي ما طلبته منك.

– سأفعل يا خالتي.

تذكّر سعدا، المرأة القوية التي تحفظ الشعر والحكايات، والتي كانت تحكي لهم الكثير من الحكايات هو وأخوته وبعض أقربائه الصغار. كانت شخصية محترمة في القرية، هي وزوجها وأولادها.

ما الذي جرى بعد ذلك؟ كيف تحوّلت سعدا إلى متشردة منبوذة، لا يمكن أن تكون مخطئة، هي بالتأكيد معرّضة لظلم غامض، عليه أن يكتشفه كانت صديقة أمه المقرّبة، وكانتا تتبادلان الشعر والحكايات. سمع صوت ياسين ابن عمّه، كان في السفح المقابل:

- لقمان، أين أنت؟ تأخرت. لم نبدأ بعد، نحن ننتظرك.
- دقائق وأصل.

كانوا ينتظرون وصوله وهو لم يأتِ إلى القرية منذ سنوات طويلة. اعترضته امرأة متوسّطة العمر وهي تبتسم:

- كيف حالك؟

بخير. شكراً لك.

- لم تعرفني؟ أنا وضحة ابنة عمتك؟
- آسف، مضى وقت طويل. كيف حالك يا وضحة؟ هه. كم ولداً لديك؟
- ولد وبنت؟ زارك ابني في مكتبك في الجامعة؟ اسمه عامر؟
- آه. تذكرت، ساعدته في طلبه السكن في المدينة الجامعية.، وطلبت منه أن يتردد عليّ بعد ذلك.
- نعم. ولكنه سافر بعد شهرين في بعثة إلى الخارج، ليتابع تعليمه.
- عظيم، كان عليه أن يعلمني على الأقل.
- معك حق. تبدو مستعجلاً؟
- نعم تأخرت، يجتمعون في بيت عمي كما تعلمين.

– اسمع يا ابن العمّ، لا تصدق ما يقوله الناس عن سعدا، هي مظلومة.

– مظلومة؟ لماذا لا يحاول أحد مساعدتها، إنها جائعة وشبه عارية، مسكينة.

– لا أحد يجرؤ على مساعدتها. قد أراك وأحدثك بعد ذلك عن الأمر.

– لا بأس.

وصل لقمان إلى دار عمّه، وفوجئ بالمواضيع الغريبة التي يطرحها الناس. ألهذا أحضروه ليتدارس معهم الوضع؟ هل لذلك علاقة باختصاصه العلمي وكتاباته؟

جلس يستمع إليهم وهم يتحدثون في تلك المواضيع الغريبة، ومن بينهم نساء بعضهن كبيرات في السنّ:

– الرجاء أن تركزوا في أحاديثكم، ليستمع ابن أخي الدكتور لقمان إليكم جيداً، لعلّه يخرج بنتيجة، ويساعدنا.

– نحن يا دكتور نعاني كثيراً في قريتنا من ظهور حيوانات مؤذية في أمكنة قد لا تخطر على بال.

قال مستفسراً:

– حسبما فهمت أن غالبية هذه الحيوانات هي زواحف ومن بينها أفاعٍ، إضافة لجرذان وفئران وحشرات كثيرة.

– النمل يكاد ينتشر في المطبخ وغرف المؤونة وغرف النوم دون أن تؤثر به المواد الكيماوية التي اشتريناها من الصيدليات الزراعية، حتى تلك المواد لم تؤثر على توالد الحشرات والزواحف. وجدنا عند إحدى العجائز الكثير من الأفاعي وبيوض الحشرات و. .

قاطعه أبو نعيم:

– بيتها قديم، وهي امرأة مسكينة لا دخل لها بما يجري.

– وهي ممسوسة بالجن وتنشر الشرّ بيننا.

قال أبو نعيم متوسّلاً:

- أرجوكم انسوا تلك المسكينة المظلومة.

- المشكلة الأخرى ظهور مخلوقات تظهر فجأة، ثم تختفي.

- وقد رأيت بعضها في الليل. ظهرت فجأة واختفت.

قال متابعاً:

- حسبما سمعت أن قريتنا -رغم كل هذه الحكايات -ازداد سعر الأراضي فيها إلى أكثر من ثلاثة أضعاف، أصحيح ذلك يا عم أبا نعيم؟

- فعلاً، وبعض الناس باعوا جزءاً من أراضيهم.

سأله أحدهم:

- يعني تنصحنا ببيع أراضينا يا دكتور.

- لا. أنا أحلّل الموضوع. أريد منكم متابعة رواياتكم، عسى أن أفهم شيئاً قد يوصلني إلى نتيجة. أنا متأكد أن في الأمر سرّاً، سأحاول كشفه بالتأكيد. إذا سُمح لي من قبل المشرفين على هذه الحوادث.

دخل فجأة أحد الفتيان كان يلهث:

- دكتور، دكتور، هناك من يتجمّع حول سيارتك خلف الغابة.

- ماذا؟

- تحاول تلك المجنونة سعدا إبعادهم.

- تحاول إبعادهم؟ هل هم كبار أم صغار؟

- بينهم كبار وغالبيتهم من أطفال القرية المجاورة لقريتنا.

سأله عمّه:

- لماذا لم تحضر السيّارة إلى هنا يا بني؟

- لم أجد طريقاً يمكن أن أسلكه، كل الدروب ضيقة.

- لو درت خارج الغابة في الاتجاه الآخر لعثرت على طريق يوصلك إلى هنا. لديك نقال، كان يجب أن تخابرني على الأقل؟

- آسف يا عم.

- أعطِ المفتاح لنعيم، سيحضرها إلى هنا، اذهب يا نعيم ومعك جابر.

- حاضر يا أبي.

أعطى المفتاح لنعيم وهو يشعر بالقلق، فحين ترك سيارته قبل الغابة، كانت هناك سيارة بيك آب وضعها إلى جانبها فما الذي حدث؟

هل لذلك علاقة بالأحداث الغريبة، فهناك من يفتعل هذه الأحداث وهو متأكد من ذلك، ربما كان بعضها غامضاً، ولكن بعضها واضحٌ -على الأقل بالنسبة إليه -كان قلبه يأكله القلق على السيارة. وربما على (سعدا) تلك المرأة المظلومة، التي يمكن أن تفسر حكايتها الكثير من الألغاز دعا في سرّه ألاّ تكون قد تعرضت لأذى. قال متماسكاً وهو يتفرّس في الجمع المتحلّق حوله:

- أكملوا الحكاية، وماذا أيضاً؟

- هناك أشياء كثيرة يا دكتور، غير مفهومة لنا، أتستطيع بعلمك أن تعرف لنا سرّ هذه الحيوانات المتكاثرة في كل مكان؟

- وسرّ رغبة أولئك الناس بشراء أراضينا؟

قال أبو نعيم مؤكّداً:

- الناس تثق بعلمك يا ابن أخي، أرجوك ابذل جهدك.

- إن شاء اللّه سأفعل يا عمي، تابعوا، احكوا لي المزيد.

***

وصل نعيم إلى السيارة، كان هناك تجمّعٌ حولها، وسعدا تحاول ابعادهم عنها، وهم يضربونها وبعض الأطفال يضربونها بالحصى. وقد ظهرت الدماء في أكثر من مكان في رأسها. صرخ بغضب:

- ابتعدوا عن السيارة أيها الأنذال.

قال أحد المتفرجين وكان رجلاً متوسط العمر، من قرية مجاورة، يبدو أنّ نعيماً يعرفه:

- ابتعد عنها يا نعيم، ليست سيارتك.

- كسرتم الزجاج وأتلفتم أضواءها، هذه جريمة، أنتم لا تراعون حرمة الجوار، إنها لابن عمي الدكتور (لقمان) جاء يزورنا.

- هي للدكتور لقمان؟ اعتقدنا أنها لأحد الذين يترددون عليكم لشراء الأراضي.

- وأنتم أيضاً ترسلون إلينا الرسل لتشتروا أراضينا يا عهد.

- نحن؟ نشتري أراضيكم؟ من الذي أشاع هذا الخبر الكاذب؟

- مختاركم؟ أرسل عدة رجال إلينا يعرض علينا أسعاراً كبيرة بالنسبة للسعر المتداول.

- ها. الآن بدأت أفهم، لماذا أهالي قريتكم يتجنبوننا، ولا يردون سلامنا سوى بإشارة غير صادقة.

- اسمع يا عهد، لماذا فعلتم بسيارة الدكتور لقمان هكذا؟

قالت سعدا وهي تبكي:

- حاولت ردعهم، فآذاني الأولاد.

- ولماذا حاولت ردعهم؟ تعرفين أنهم سيؤذونك.

- لقمان ابن أعز صديقاتي، وقد قابلته، وكان لطيفاً.

- لأنه لا يعرف.

- لا يعرف ماذا؟ ما الذي فعلته لكم حتى نبذتموني وصادرتم أرضي وبيتي، وألقيتموني في البرية، كامرأة منبوذة.

قال نعيم:

- لا وقت لهذا، اسكتي.

– واللّه لن اسكت. أنت ابن عم لقمان، وهو رجل طاهر كأمه، سأحكي له كل شيء عن تعذيبك لي، حتى دون علم والدك.

ثم همست قريباً منه حتّى لا يسمعها أحد:

– تعتقد أنني سأحكي أنني رأيتك وزوجة حمدان عدة مرات في الحرش في وضع مشين؟ ليس من عادتي أيها الوغد.

– اخرسي قبل أن أكتم أنفاسك.

قال عهد محتجّاً:

– لماذا تقسو على هذه المسكينة يا نعيم؟ حرام عليك.

– إنها مجنونة، بدون عقل.

– لم نر منها سوى الشهامة وهي تدافع عن السيارة وقد آذاها بعض الأولاد.

– لماذا سمحت لهم بإيذائها؟ ما دمت تراها بهذه الطيبة؟

– اسمع يا نعيم، الذي كسر زجاج السيارة وأضواءها أناس كانوا في سيارة بيك آب تقف هنا، فعلوا ذلك وأقلعوا بسيارتهم.

– والأولاد؟

– هم من حمّسوهم لقذفها بالحصى، وكانت سعدا تدافع عنها، أقصد عن السيارة لماذا تكرهون هذه المرأة؟ حرام عليكم. أعتقد أنها مظلومة، بل ومتأكد من ذلك. جدّتي حكت عنها الكثير وعن شهامتها في مساعدة الغير.

– يعتقد بعض الناس عندنا، أنها ساحرة وتجلب النحس، وهي سبب ظهور الخراب في قريتنا. هه قلت لي من كان في سيارة البيك آب هم من كسروا زجاجها وأضواءها؟

– وإن رغبت اعطِ لابن عمك رقم السيارة قد يفيده. تفضل.

***

وفي أحد الكهوف المجاورة، كانت هناك مخلوقات غريبة تتحضّر، للخروج في الليل، وكانت بأشكال غير مألوفة.

كان لقمان يستمع للناس في القرية الذين تباينت آراؤهم وحكاياتهم، وهو يفكّر بما يمكن أن يساهم به في حل مشكلة ليست مفهومة بعد، حين حضر نعيم ومعه السيارة، التي كانت في حالة يرثى لها.

وحين عاينها لقمان، رأى أن الأضرار كبيرة في الزجاج والأبواب والمصابيح. كانت الساعة تقارب الثالثة ظهراً حين جلس يتناول طعامه في بيت عمه. قال نعيم:

- آسف على السيارة يا ابن العم. العملية التي قاموا بها مقصودة وربما تقصدك أنت، وقد رأوك تخرج منها وتقطع الغابة. وعرفك أحدهم.
- أرجو أن لا يكونوا قد آذوا سعدا العجوز المسكينة.
- هي امرأة أفاقه وكاذبة.

قال أبو نعيم محتجّاً على كلام ابنه:

- حرام أن تقول ذلك، هي امرأة مظلومة، والناس في قريتنا ظلموها.
- هكذا يقوم الناس عنها.
- أنت تشارك إشاعات الناس لما هو كاذب، لا يا نعيم هذه ليست أخلاقك يا بني.

أكّد لقمان:

- عمي أبو نعيم معه حق.
- ربما كذبت عليك أنت يا ابن العم؟
- أنا أستطيع بخبرتي تمييز الصادق من الكاذب، لم تكن كاذبة.

قال العمّ:

- أرأيت يا نعيم؟ حتى لقمان -بنظرته السديدة -يقول عنها أنها مظلومة؟

أراد نعيم تغيير الحديث، الذي يبدو أنّه يزعجه:

– وماذا ستفعل بالسيارة، غير صالحة للسير. بدون مصابيح وزجاج. هذا رقم سيارة الجناة يا ابن العم.

***

اتصل لقمان بصديق له يعمل ضابطاً في شرطة المرور وأعطاه رقم السيارة البيك آب، وحكى له كيف كسّروا بعض أجهزتها الهامة وزجاجها.

وعده بالبحث عنهم، ولامه لأنه لم يحضر دورية لضبط الحادث. صمّم أن يوصلها للمدينة القريبة بعد إنهاء عمله في القرية، وقد ضاقت عليه السبل، وهو يستمع لتناقضات في أقوال الناس وخاصة عن تلك المسكينة سعدا التي تعيش حياة مزريّة.

نام في بيت عمّه، بعد محادثات كثيرة مع الناس حول ما يجري في القرية، وكان الجميع تقريباً، يروون حكايات ملفّقة عن سعدا. كان بعضهم يبالغ بروايتها.

خيّل إليه بعد أن غفا أنه يمشي في الليل تحت ضوء القمر، في حقل قريب من الغابة سمع صوتاً أشبه بقهقهة، ثم ظهر له ضبع. إنه ضبع من الضباع الضاحكة التي تطلق قهقهة، أشبه بالقهقهة البشرية. اعترض طريقه. سمع صوتاً خفق له قلبه:

– لا تخف يا بني، سأبعده عنك.

– أمي. أمي.

– أنا معك يا بني، لا تخف. ستساعدك عجوز سمحة الوجه، طيبة من صديقاتي القديمات، تعيش -رغم سنها الكبير -لمساعدة الناس وإنقاذهم وعندها الحكمة. انطلق إلى الغابة، واستخدم مصباح الجيب سترى مشاهد تساعدك في حلّ بعض العقد. أنا ذاهبة الآن يا بني.

– أمي، لا تتركيني. أرجوك.

– لا أستطيع يا بني إنهم يستدعونني، سمحوا لي بالهبوط في حلمك لبعض الوقت، بناء على طلبي. وقد انتهى الوقت كن مع سعدا هي مظلومة، وتعرف الكثير. وداعاً يا بني.

استيقظ على صوت ضربات على الباب. دون أن يكمل الحلم. نهض منزعجاً ليفتح الباب، الذي لم يكن مقفلاً. لم ير أحداً.

عاد إلى فراشه. فعادت الضربات. فقفز بسرعة ليفتح الباب من جديد فوجد رجلاً بشعاً يضحك، ثم اختفى.

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وبقي لدقائق يحاول أن يغفو، ثم أتاه النوم رأى نفسه يتجه إلى الغابة والظلام شديد وفي جيبه عثر على مصباح جيب صغير، ضغط على زرّه لينطلق الضوء. شقّ الضوء الظلام، والطريق داخل الغابة أصبح واضحاً، ولكنّه رأى مخلوقات تقفز هنا وهناك، وحشرات كثيرة وزواحف ، كان الوضع غير مطمئن. سمع صوتاً حنوناً قربه:

– لا تخف يا لقمان، أنا على يمينك. أنا أعرف أمك جيداً، تعال سأنقذك من أولئك الأنذال، واكشف لك أسرارهم. أنا من حدّثتك عنّي أمك الغالية.

سمع أصواتاً مرعبة وتردّدت الصرخات:

– جئت لتلاقي حتفك. يا دكتور.

قال الصوت:

– لا تكترث، هم يرونك ولا يروننني. أنا معك.

– التفّوا حوله، سنقبض عليه ونهبط به إلى الأسفل لتبدأ رحلة تعذيبه. اهجموا عليه.

– إنه يطلق علينا إشعاعاً من يديه.

– أنتم أبناء النار، لا تخافوا من إشعاعه.

- ولكنها نار تقلّص الجسد حتّى يختفي.
- لا تكونوا جبناء.

سأل المرأة التي أحسّ بوجودها إلى جانبه:

- وكيف تطلقين هذه الشرارات يا خالة؟
- هذه طاقتي، وهم تحجّم طاقاتهم وتسلبها منهم.

سمع صراخ زعيمهم:

- توقفوا. اسمع يا دكتور، سآمرهم بالتراجع، أوقف شراراتك إنها تؤذينا، وقد قتلت بعض رجالنا.
- أريد أن أعرف شيئاً عن أسراركم، ماذا تفعلون هنا؟ وعندها سأتوقف.
- بشرط، إن حنثت به سيكلفك ذلك حياتك.
- وما هو؟
- أن يبقى كل ما سنطلعك عليه، سراً لا تطلعه على أحد.

قال وصديقة أمّه إلى جانبه:

- حسناً قبلت. بشرط أن تتوقّفوا عن أذيّة الناس.

قال الزعيم ضاحكاً:

- ليس هذا شرطاً نقبل به ولكن لا بأس، تفضل، سنهبط إلى الأسفل.

كانت هناك درجات تمتد في نفق لولبي، قال الزعيم من جديد:

- تحت أراضي قريتكم وخصوصاً بما فيها هذه الغابة، مناجم من الذهب.
- لذلك أنتم تعرضون بيع الأراضي بأضعاف سعرها؟

– وسنشتريها مهما رفعوا السعر، وسنسيطر على القرية، ونجعل أهلها يخدمون مشاريع استثمارنا إن رغبوا.

– ولكن هذا الذهب كما أرى فيه تماثيل متقنة، وألواح و.

– نعلم ذلك. ولكنها ستكون ملكنا.

– وماذا عن أشباحكم؟

– نمتلك تقنيّة الأبعاد الثلاثية، جهاز تصوير (كريلياني) هو جهاز قديم، طورناه عن طريق سيدنا الأعظم، لننشر صوراً لرجال قبيحين نتحكّم بهم، يمكنهم أن يتكلموا كلمتين، أو أن يضحكوا ويرعبوا الناس ثمّ يختفون. أفهمت يا دكتور؟ لماذا نحكي لك هذه الأسرار؟ لأنّك إن حكيتها، لن يصدقك أحد. نعلم أنك تتمتع بقدرات كبيرة، ولكننا أقوى منك. نستطيع أن نقتل أسرتك، وعائلتك وأصحابك بالتدريج قبل أن نقتلك حين تضعف قواك.

همس :ـ كم هم أبالسة أشرار؟ أتسمعين يا خالتي؟

– لا تقلق. انظر إلى وجهي وتأمّله، وحين تطلبني ستجدني إلى جانبك أنا (مزون) يا بني. قد تعرف حكايتي فيما بعد. اسألهم أكثر، اسألهم عن الحشرات والأفاعي وحيوانات الليل؟

عاد يسأل:

– وماذا عن تكاثر الأفاعي والحشرات وغيرها من الحيوانات؟

– هرمونات النمو في غذاء الأفاعي، وفي غذاء الحشرات وغيرها من الحيوانات، أي نخصّب إناث هذه الحيوانات فيزداد تعدادها.

– كل شيء مدروس.

– نعم. لنسيطر على هذه المنطقة، ونستعبد أهلها.

سمع صوتها وهي تردّد" لا تخف أنا معك. أنا معك. أنا معك""

***

استيقظ مذهولاً، وتحسّس السرير في الظلام، ليشعل النور، كان في غرفة بيت عمّه، وقد بدأت طلائع الفجر. هل هو استبصار في الحلم؟ هو يعرف قدرة مزون لإيصال الرسائل والدخول في أنفاق الزمن. هل أدخلته في نفق زمني عن طريق الحلم؟

نهض يستخرج من حقيبته دفتر يومياته، فكتب الحلم بالتفصيل، ووجه مزون السمحة يتخايل أمامه. كم أعطاه ذلك الحلم الغريب من معلومات، هل هي حقيقية كما تراءى له؟ أم أن بعضها غير حقيقي؟ سمع طرقاً على الباب، ثمّ فتح الباب بهدوء:

- رأيت الضوء من تحت الباب، استغربت استيقاظك مبكراً.
- صباح الخير يا فاطمة استيقظت مبكّراً، أنا أكتب.
- أرجو ألاّ تكون قد انزعجت من المرتبة على السرير، هي قاسية قليلاً، تعلم أننا نستخدم مراتب الصوف، نظراً لشدّة برد الشتاء ونحن نرتفع عن سطح البحر في هذه الجبال العالية.
- لا. لم أنزعج من النوم. أنا أفكّر بما يحصل في القرية.
- إن لم تكن ترغب في العودة للنوم، سأهيئ لك القهوة؟
- لا بأس سلمت يداك.

كانت فاطمة صغرى بنات عمّه، رغم جمالها لم تتزوج، وقد بدأت تنهي عقدها الرابع كانت لطيفة محبّة، تعتني بوالديها ومن يزورهما من أخوتها وأسرهم. وكان يثق بآرائها. فتحت الباب ومعها القهوة، همست:

- وسط، كما أعرف.
- أنت لا تنسين أبداً. اجلسي معي سنتبادل الحديث.

جلست على الكرسي المقابل:

- ماذا تعرفين يا فاطمة عن سعدا أنا أثق بكلامك.
- سعدا المسكينة طردوها من القرية، تشردّت وتعيش في البرية حياة

بائسة، ظلموها باختلاق الحكايات عنها، قالوا إنها ممسوسة بالجنّ، واتهموها أنها تربّي الأفاعي، فكل الأفاعي التي تنتشر في القرية تخرج من جدران بيتها. هاجموا البيت فرأوا الكثير من أوكار الأفاعي والزواحف، بل والحشرات التي خرجت بأعداد كبيرة. أقسمت أغلظ الأيمان أن لا علم لها بما يجري، وأن الأفاعي هددتها أكثر من مرة. ولكنهم لم يصدقوها أخرجوها من البيت، وأحرقوا محتوياته، ووزع بعضهم مؤونتها الصغيرة على بعض الناس في القرية. وخرجت تبكي وهي تصرخ: ""والله أنا بريئة من كل هذه المزاعم، وسيعاقبكم الله على ظلمي، أنا امرأة مقطوعة، لا أحد يقف معي، وسيعاقبكم الله جميعاً على طردي ومصادرة بيتي وحرق أشيائي"" قال لها أحد من حرقوا بيتها وكان رجلاً غريباً:"" لولا أن نكون طيبين، لقتلناك، أنت وشياطينك من الجن، تريدين قتل من في القرية أيتها الحيزبون.""

وأكملت فاطمة وهي تتنهّد:

– لم تستطع أن تقاوم وحشيتهم، كانت تردّد:" أتصدقون أيها الأوغاد، أن باستطاعتي القيام بكل هذه الأعمال لنشر الخراب بينكم؟ حرام عليكم. أقسم بالله أنّي بريئة""

وابتعدت عن القرية. أشفق عليها بعض أهالي القرى الأخرى فأرسلوا لها الطعام، وبعضهم كان يتصدّق عليها باللباس. وهي تعيش في (خرابة) قرب الغابة، ولكن الأنذال في قريتنا ارسلوا لكل أهالي القرى المجاورة أن لا يتصدقوا عليها أو يساعدوها فهي منبوذة ممسوسة بالجن.

– إلى هذه الدرجة؟ يا إلهي كيف نسيت؟ معقول؟

– ماذا؟

– نسيت أن أرسل لها طعاماً وقد رجتني.

– لا بأس، سأرسل لها طعاماً عن طريق ابن أختي، سيسافر إلى المدينة بعد قليل، هو يحافظ على السرّ. وأرجو ألا يراه نعيم أخي ويستنطقه؟

- لماذا يكره نعيم سعدا إلى هذه الدرجة؟

- لا أدري، هناك سر لا أعرفه، ولكن بالتأكيد ليست هي المذنبة.

- معك حق. أرجو أن تبلّغي ابن أختك أن يذكر اسمي عندها. لقيتها عندما وصلت إلى هنا، كانت أمي تحبها كثيراً.

- مسكينة. أنا مستغربة أنها لم تمت من القهر؟

- هذا جزء من حكاية سعدا، وهناك أجزاء لا أعرفها، قد تستطيع الوصول إليها من خلال حكايات الناس.

- مسكينة. الكل آذوها، بما فيهم نعيم أخوك. ولا نعلم سرّ عداوته لها.

- قد تحصل على أجوبتك يا ابن العم. جئت إلينا من أجل كشف الأسرار.

- أتسمعين شيئاً من الناس عن عجوز سمحة الوجه اسمها مزون.

- كانت تظهر ويحكي عنها الناس عجائب. هذا في الزمن القديم زمن فتوّة والدي وشبابه. لماذا تسأل؟

- هي امرأة خارقة تساعد المظلوم، وأعتقد أنها قد تزور قريتنا قريباً.

- غريب أنها لم تمت، لابد وأنها متقدمة كثيراً في السنّ.

- الذين ينصرون المظلوم ويدافعون عن الحق، وليس في داخلهم حقد على الآخر أو أنانية ولهاث وراء المتعة، قد يعيشون طويلاً.

- أسمع عنها من جدي المرحوم ومن والدي، أحاديث كالقديسات.

- هي امرأة طاهرة، ولكنها لا تعتبر نفسها قديسة، تعتبر أنها صاحبة رسالة ستظل تنشرها حتى يتوفاها الله.

- ومن أين تعرفها؟ هل قابلتها؟

- حفيدها محسن، أعز أصدقائي.

سمع صوت سعال عمّه أبو نعيم:

- صباح الخير يا بني.
- إلى أين أنت ذاهب؟ أراك ترتدي لباس الخروج؟
- نحو الغابة، والمناطق المجاورة لها، أتريد مرافقتي؟
- لا بأس، أتمنى ذلك.

أكّدت له فاطمة وهي تهمس كي لا يسمعها والدها:

- لا تقلق على الطعام الذي سأرسله لسعدا.

وكانت الأحداث تتفاقم في منطقة كثرت فيها الأسرار وكثر فيها الغرباء. وسط جو غامض تدور فيه أحداث مرعبة.

***

أية مفاجأة غريبة ألقتك في قريتك التي نشأت بها وعشت فيها طفولة قصيرة مازالت زادك في ذكرياتها وقد أثّرت بك كثيراً.

اتجه لقمان وعمه أبو نعيم صوب الغابة، وعاوده الحلم الذي رآه، وكتبه في يومياته حتى لا ينساه، هل هو حقيقي؟ أم يمزج بين الحقيقة والخيال؟

لكن مزون حقيقية، وهي امرأة خارقة يعرف عنها الكثير عن طريق محسن حفيدها الذي يعتبره من أقرب أصدقائه إليه.

كان الوقت مبكّراً وعمه يحدّثه عن أراضي القرية التي يمرون بها، وأصحابها والعروض التي تلقوها من أجل بيعها:

- تصور يا بني، لم يحدث من قبل أن أقبل الشارون على أملاكنا لشرائها بأثمان مرتفعة.

- لا بد وأن يكون هناك سبب هام، وراء هذا الإقبال على محاولة شراء الأراضي هنا. اسمع يا عمي أهناك كهوف وأنفاق قريبة من الغابة؟

– هناك أكثر من كهف وحفرة لعلّ أشهرها (بئر العتمة) ولا أحد من القرية يقترب منها، يعتقدون أنها مسكونة بالجنّ.

– صحيح، كانت المرحومة أمي تحذرنا من الاقتراب منها. وقد وضع أهالي القرية في ذلك الحين جذوع أشجار يابسة حولها، لا يجرؤ أحد على النفوذ داخلها. أما زالت مخفية مجهولة؟

– نعم يا بنيّ. بصراحة أردت أن تحضر معي يا لقمان لدراسة الوضع في الغابة وحولها، أنا أثق بقدراتك يا بني.

– إن شاء الله لا أخذلك يا عمّاه.

جالا في الغابة، ولحظا تكاثر الزواحف والحشرات، ومرّت بين الأشجار ما خيّل للقمان أنّها أشباح ظهرت واختفت لأشكال بشعة، تذكّر الحلم، والتصوير بطريقة (كير يلاني) الذي يجسّد لأشباح بثلاثة أبعاد. ولحظ أنّ عمّه أبا نعيم لم يكترث بما يجري حوله، وبعد قليل بدأا يهبطان المنطقة المنخفضة خلف الغابة:

– ما رأيك لو ندخل الكهف القريب من الغابة. جهزت نفسي بمصباحين يدويين وهذه البندقية التي أحملها ومعي سكين كبيرة.

– لماذا؟ قد نصطدم بأحد أولئك الذين يشرفون على تعكير صفو الناس في القرية؟

– ممكن. أنت جاهز.

– تمنيت لو أكون وحيداً في مغامرتي، دون أدخلك في مغامرة غير محسوبة.

– قلق علي؟ صحيح أنا في الخامسة والستين، ولكني ما زلت قوياً.

وانسربت أفعى ضخمة قريباً منهما:

– أرأيت تلك الأفعى الضخمة يا عمّي أرأيت كيف احتكت بي وخلفها تلك الحيات الصغيرات؟ لا يمكن أن تكون وليدة هذه المنطقة؟

– الكثير من الأشياء الغريبة بدأت تظهر عندنا، لم نكن نعرفها ولا يعرفها أجدادنا من قبل. من أين أتت هذه الحشرات الطائرة أيضاً؟ ليس الوضع طبيعياً، هناك شيء غريب يحدث هنا. اقتربنا من الكهف. أنت جاهز يا ابن أخي؟

– بالطبع.

– كأن الكهف مغلقاً ببوابة، غريب.

قال لقمان وقد شعر بالخوف على عمّه:

– ليست بوابة نظامية. إنها بضعة أغصان موضوعة على الباب بشكل متصالب، فتبدو أشبه بالبوابة، سأزيلها.

– قد يكون من أغلقها أحداً من أهالي القرية.

– لا أعتقد يا عمّ.

– يمكن.

وصلتهما أصوات صاخبة وضحكات قال لقمان:

– سنرى سرّ هذه الأصوات، الشمس تكشف مسافات جيدة في الكهف.

شعر أن عيوناً تراقبهما، لقد نصبوا كاميرات في كل مكان هل هو نوع من برمجة، مخطط لها لأشياء غريبة؟ كان ما رآه في الحلم راسخاً في ذاكرته.

بدأت العتمة تغمر الكهف، أشعل عمّه أحد مصباحيه اليدويين. وصلتهما أصوات غريبة كزمجرة وحوش وحفيف أفاعي وصراخ متألّمين. قال لقمان مفسّراً هذه الأصوات:

– ربما أصوات مسجلة على جهاز.

توغّلا في الكهف واكتشف لقمان بحنكته جهاز تسجيل موضوعاً فيه شريط يطلق أصوات غريبة من بينها تلك الأصوات التي سمعاها. كانت تتردّد بانتظام وبتوقيت معين.

شعر لقمان بالخطر، فالكاميرات التي تصوّر بالتأكيد كشفتهما. فهمس لعمه أن يعودا، فقد يغلق عليهما أحد الكهف من الخارج.

- وكيف واتتك هذه الفكرة؟

- هناك كاميرات صغيرة صوّرت دخولنا.

- وكيف عرفت؟

- رأيت عدساتها المتحركة، ولم أرغب بإزعاجك.

- لماذا فرضت أنهم سيغلقون علينا الكهف؟

- لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد للقبض علينا.

شعر أبو نعيم أنّ لقماناً لا يريده أن يتغلغل في مغامرة خطيرة قد تؤذيه وهو رجل كبير في السنّ، ولكنّ عمّه قطع عليه هذا الهاجس:

- لا تخف عليّ يا لقمان، ثمّ أنا معك لا أخاف أبداً، أعرف قدراتك الخفيّة وشهرتك بالسيطرة على الطاقات التي تحاول نشر الشرّ. أعتقد أننا يجب أن نتابع طريقنا دون أن نتوقف؟ يجب أن نكشف سرّ ما يجري حولنا.

علت أصوات قهقهات ساخرة ثمّ بكاء وتأوّهات، علّق لقمان:

- سنعثر على مسجلة أخرى عليها هذه الأصوات.

انبعثت فجأة أصوات زمجرة، وظهر لهما تحت الضوء ضبع بدا حقيقيّاً. علّق لقمان بهدوء:

- الضبع يخاف الضوء، سأسلط المصباح إلى عينيه.

ولكنّ ضباعاً أخرى ظهرت:

- إنه أكثر من واحد، ربما ثلاثة أو أربعة. ظهرت الآن لتجبرنا على الخروج، هذا ما يريده من برمجها.

قال العمّ مستغرباً:

- إنها لا تتراجع رغم الضوء الصادر عن مصباح الجيب، هذه أول مرة أرى فيها حيوانات ليلية لا تخاف الضوء.

- هكذا برمجها من أشرف على تربيتها واطعامها.

- حتى ولو كان ذلك صحيحاً، يجب أن نتابع طريقنا.

- وإن هاجمتنا؟

- سأتعامل معها بالبندقية.

ولكنّ الضباع تراجعت واختفت، قال لقمان:

- من الأفضل أن نخرج، هذا الكهف قد يحوي أسراراً ولكن بئر العتمة، هو من يحوي الأسرار الكبيرة.

- ولماذا افترضت ذلك؟

- لأن نهاية الكهف تظهر في العمق، أترى الجراء الصغيرة في نهاية الكهف؟

- معك حق، وإن كنت أعتقد أن أنفاقاً خلف هذه الجراء.

فكّر لقمان وقد استنفر حواسه"" أشعر أن جميع من يرانا الآن مستنفر بكل حواسه خلف هذه الجراء، لأنه لو تابعنا لكشفنا أهم أسراره""

- سنقصد بئر العتمة إذن يا لقمان؟

- نعم يا عم. سنتظاهر أننا خفنا من الضباع، ليعلم من يتابعنا بكاميراته، أن دخولنا الكهف لم يكن له ما يبرره.

حين عودتهما، خفت أصوات الزمجرة، وحين أصبحا في الضوء القادم من النهار خارجاً، شاهدا مدخل الكهف، وقد تخايلت تحت الضوء أشكالٌ من الحيوانات الزاحفة والطائرة، كأنها تسدّه من الأسفل.

كان أبو نعيم مستغرباً وجود تلك الحيوانات. ولكن لقمان لم يكن مستغرباً:

- سنخرج يا عمي دون تردّد، لن تؤذينا هذه الحيوانات، إلاّ إن كانت مجوّعة. وخاصة الكبيرة منها.

- سأستخدم البندقية لطردها.

- إن هاجمتنا سنستخدم بندقيتك وسكينك. وإن ابتعدت فلا بأس.

- حسناً أنا معك.

مع خطوات لقمان الواثقة ورغم تكاثر الحيوانات وازدياد فحيح الأفاعي التي يبدو أنّها تدجّن في الكهف الطويل همس لعمّه:

- أنت طويل يا عمّي حاول أن تغطي عدسات الكاميرات، أريد أن آخذ جهاز التسجيل.

- فهمت، انتبه لنفسك. سأظهر كأنني أعلق البندقية في كتفي وسأرفعها لأغطي عين الكاميرا.

غمغم لقمان:

- أحسنت يا عماه، تمكنت من سرقة المسجل الصغير وما حوله من الشرائح. سيفيدني ذلك كثيراً.

- وكيف ستخرج بها؟

- وضعتها في داخل السترة، لا تقلق عليّ.

كانت الأفاعي والحشرات والسناجب الصغيرة، تنسحب. كأنها مبرمجة، وهذا ما اكتشفه لقمان حين أمسك بحذر إحدى الحيوانات الصغيرة، فرأى الشريحة الملتصقة ببطنها وكلّ الحيوانات التي من صنفها تتبعها. كل الحيوانات تسيّر بوساطة شرائح مزروعة في أنواعها الضخمة التي تتبعها الحيوانات الأصغر من جنسها حسب الأوامر المبرمجة لها. حاول لقمان شرح ذلك لعمّه:

- أنت تقول كلاماً أكبر من معلوماتي ومعارفي يا بني. وبالتأكيد أنت تفهم الوضع جيداً، قد تبسّط لي ذلك فيما بعد.

- بالتأكيد يا عماه. سنعود إلى الغابة.

- وبئر العتمة؟

- سنلف حول الغابة ونتجه بشكل غير مباشر إلى (بئر العتمة).

لم تكن تغطية الجوّال متوفّرة داخل الكهف، وحالما خرج لقمان وعمّه منه، رنّ الجوّال ففتح الخطّ:

- آلو. نعم سيادة العقيد، حسناً، سأرى الأمر لا تقلق. شكراً. أنا مطمئن بالتأكيد. مع السلامة.

سأله أبو نعيم:

- أهناك خبر عمّن اعتدوا على سيارتك؟

- تقريباً.

اتجّها إلى بئر العتمة. يجب أن يسأل عمّه عن سعدا، ويستفسر أكثر عن قصتها.

***

في مكان آخر كانت سعدا تعاني الجوع والتعب، وقد تكوّرت على نفسها تحت شجرة قريبة من المقبرة. وهي تئن، فجروحها من حجارة الأولاد ومن العصا التي كان يحملها أحد الرجال المعتدين على سيارة لقمان، جعلتها تيئس من حياتها فجأة، وهي تئن وتبكي.

وصل أيهم ابن أخت فاطمة، إلى المكان الذي اعتادت فيه سعدا الاستراحة قرب المقبرة. وكان أيهم يشفق عليها ويحضر لها بعض الحلوى من المدينة. رأى وضعها وهي تئن وترتجف وتبكي:

- جدتي سعدا ما بك؟

- أنا أموت يا عين جدتك. آه. لا أحد يناديني بالجدّة سعدا سواك يا بني، أنا أموت. وعدني لقمان بالطعام ويبدو أن حادثة سيارته جعلته ينسى وجودي.

- والله يا جدّتي سعدا، هو من أرسلني. آه. أنت محمومة، يجب أن يراك طبيب.

- اتركني أموت، آه من هذه القرية البائسة التي ظلمتني وقتلتني بطريقة وحشية، حتى الوحوش تترفع عنها.

- يا إلهي، سأذهب لأحضر لك طبيباً من القرية المجاورة.

سمع صوتاً خلفه:

- لا داعي لذلك يا بني.

صرخت سعدا بفرح قبل أن تنفجر بالبكاء:

- أنت، يا إلهي، كنت أحلم بأن أراك ثانية قبل أن أموت.

دمعت عينا مزون، وتمتمت:

- تأخرت عليك أيتها المظلومة. أنا آسفة.

- يكفي أن أموت وأنت معي. مضت سنوات طويلة على لقائنا الأخير. وكنت متيقنة أنك بخير.

- من هذا الوغد الذي آذاك كل هذه الأذى؟

رأى أيهم كأن يديها تشعان بالنور وهي تمررها فوق جسد سعدا الجريحة. كانت سعدا تبكي وهي تتململ بخجل:

- آسفة، جسمي وسخ، ورائحتي كريهة، اعذريني أرجوك.

- يا سعدا الغالية المظلومة، رجوتك إن ضايقك أمر أن تهتفي باسمي وترجي الله أن يساعدك في قدومي إليك. يا إلهي ما هذه الجروح؟ ألقوا عليك الحجارة، آه هناك آثار ضرب، كيف طاوعتهم قلوبهم بأذية هذا الجسد النحيل البائس؟ يا ويلي. كم سيتعذب مثل هؤلاء السفلة؟

قال أيهم وهو يرتجف من الانفعال وهو يرى ما تقوم به مزون من عمل مذهل:

- أحضرت لها الطعام.

- يا بني، يجب علاجها من جروحها وكآبتها قبل أن تستطيع تناول الطعام.

***

في مسيرهما حول الغابة في اتجاه بئر العتمة، لحظ لقمان عجوزاً ترتدي البياض وسعدا ممدّدة وقربهما شاب يقف وهو يراقب بحزن، قال أبو نعمان:

– إنّه حفيدي أيهم، وتلك سعدا.

خفق قلب لقمان، إنّها مزون، اتجها صوب المكان، قال مرتبكاً:

– ما بها الخالة سعدا؟

قالت مزون معاتبة:

– كيف تركتموها يا لقمان، إنها في طريقها للموت؟ لم أر امرأة عذّبها أهلها مثل ما عذّبتم هذه المسكينة.

– معك حق.

تنهّدت مزون وهي تقول بحرقة:

– كشَفت مؤامرتهم لإذلال أهل القرية، وتهجير أهلها، فعاقبها الأهالي على اخلاصها للناس.

كانت مزون، تمرر يديها فوق جراح المسكينة التي كانت تختلج:

– سعدا، اسمعيني، لن أذهب من هنا قبل أن أطمئن عليك وأعيد إليك كرامتك واحترامك لدى الجميع.

قال أيهم وهو يجهش بالبكاء:

– طردوها من بيتها وتقاسموا مؤونتها وأرضها وظلّت متمسكة بالقيم التّي تربّت عليها، والله لم أر أحنّ منها وأكثر طيبة ومعرفة منها. كانت تعلمني دروسي أحياناً. هذه قرية ظالمة مجرمة.

قالت مزون وهي تطبطب على كتف أيهم، وقد استدارت نحو لقمان:

– ظلمت كما ظلمت أمك يا لقمان حتى كبرتم وأعدتم إليها اعتبارها.

– أتعرفين أمي يا سيدتي؟

– التقينا كثيراً، كانت تحلم بأن تصبح إنساناً مختلفاً متميزاً بعلمك وذكائك، وقد أصبحت كما كانت تحلم، رحمها الله. كانت ذكية لم يشفع لها مرضها أن تظل في دائرة أسرتها، فأخرجوها من الدائرة إلى دائرة النسيان حيث الجوع والوحدة والكوابيس.

– كلامك دقيق يا سيدتي، رحم الله أمي، كل ما قلتها عنها عاشته في غربتها وعزلتها وفقرها وبؤسها وأنينها في الليل مع الوحدة والوحشة، ولا أحد لها سوى الجدران الصمّاء.

كانت هناك سيّارة بيك آب تقترب، قالت مزون:

– إنها سيارة البيك آب التي خرّب أصحابها سيارتك، وآذوا هذه المسكينة، وشجعوا الأطفال على قذفها بالحجارة.

كانت سعدا تختلج، وهي تتأوّه:

– آه. أنا أموت يا مزون، اتركيني أرحل تعبت من العذاب والظلم.

– لا والله يا سعدا، لن أتركك وسيساعدني ربي في إعادتك إلى دائرة العدل. اسمع يا لقمان، اذهب إلى هذين النذلين. وتذكّر ما تعلّمته من حفيدي محسن، ولا تقلق ستأتيك النجدة سريعاً. أنا منشغلة بسعدا رفيقة أمك.

– سأفعل يا سيدتي.

قال أبو نعيم:

– سآتي معك يا بني.

قال أيهم:

– وأنا يا جدي؟

قال أبو نعيم مؤكّداً:

– ابق هنا يا بني، قد تحتاجك السيدة. لا داعي ان تسافر اليوم.

- حاضر يا جدي.

كان لقمان يمسح دموعه وقد اندفعت ذاكرته نابضة بالحياة، وهو يتذكر أيام أمه البائسة التي عاشت حياة حافلة بالآلام. نبّهه أبو نعيم:

- هذه مزون؟ وأتت من أجل هذه المسكينة سعدا؟

- سعدا يا عماه امرأة عارفة، ظلمها الجهل وظلت وفيّة لمعرفتها ونزعتها الإنسانية الخيرة، لم تؤذ من آذاها، ولم تدع على من ضربها وأهانها، وأخرجها بتهم ملفقة من بيتها وأرضها.

كان هناك بعض الناس يتجمّعون هناك قرب الغابة، حول سيارة البيك آب، وبدا بينهم رجل أنيق نحيف البنية، وقربه امرأة بلباس زاهي، كان الرجل يهزّ رأسه وهو يقول:

- أنا أحضرت الكثير من المال، زد لهم السعر حتى يقبلوا حتى ولو كان السعر عدة أضعاف.

- يا سيدي، بعضهم عنيد، تمسك بأرضه.

- اترك هؤلاء حتى ننتهي من الذين يسيل لعابهم للمال، ثم نتفرغ للآخرين الذين يرفضون البيع، لدينا ألف طريقة لإجبارهم على القبول.

- سنفعل يا سيدي، سنذهب إلى بيت المختار، ثم ندور في القرية.

قالت المرأة:

- سأكون معكم.

- بالطبع لسانك مقنع بكلماته المعسولة يا شهلا.

- شكراً لك يا سيدي.

- هيا انطلقوا جميعاً إلى القرية.

اقترب منهم لقمان وعمّه، قال لقمان:

- عفواً أنتم من اعتدى على سيارتي؟

- اعتدينا على سيارتك؟ ومن أنت؟

- صاحب السيارة التي كانت هنا أمس قرب سيارة البيك آب هذه.

- وماذا تريد منا؟

- أن أعرف سبب اعتدائكم. ماذا فعلت لكم لتكسروا سيارتي؟

- إن كسّروا سيارتك سيكون هناك سبب، وتستحق أن تعاقب عليه.

- ومن أنت حتى تقضي بهذه الطريقة؟ أتعرفني؟

- نعم، أنت لقمان، تشجع الأهالي عدم بيع الأراضي، وتقف ضد مشاريعنا، هكذا أخبرونا عنك.

- الذين بلّغوك بهذه القضية، كذبوا، لأنني لا أشجع الأهالي على عدم بيع الأراضي، بل سأمنعهم من بيعها.

- ما شاء الله؟ أتعرف من نحن؟

- حفنة من الأنذال اكتشفوا كنوزاً في القرية، ويريدون سرقتها، ولو قتلوا في سبيلها كل الأهالي. ما يهمكم جشعكم للمال، لا انتماء لديكم، أنتم وبعض من باعوا ضميرهم.

- هذا كلام خطير، أمستعد أن تتحمل نتائجه؟

- ولن أخاف منكم.

وشوشه أبو نعيم:

- هل أشهر البندقية في وجوههم؟

- لا يا عمّ، سأعرف كيف أوقفهم بطريقتي. مزون تثق بقدرتي وسأظهرها الآن.

صرخ الرجل النحيف:

- أروه ماذا نستطيع أن نفعل؟ هيا.

- حاضر يا سيدي.

قالت المرأة بغنج:

- تبدو لذيذاً، ترفع رأسك أكثر من اللازم، حرام أن يشوّهوا هذا الوجه، ويرسلوك إلى محبيك بعظام مكسّرة.

- ابتعدي عني.

أشار لعمّه أن يبتعد وألاّ يقلق، وقد أخذ الرجل النحيف يؤلّب أتباعه الذين التفّوا حول لقمان، الذي لم يظهر أي خوف، وهو يرفع يديه متحفّزاً للقتال كأن يديه ترسلان أشعة غير مرئيّة، يبدو أنّها أثرت على مهاجميه الذين تراجعوا كمن يتلقّون ضربات مباشرة:

- إنّه ساحر يا سيّدي.

(يهمس)

- وأنت أيها النذل اشتركت في الاعتداء على تلك المشردة المسكينة.

صرخ الرجل النحيف:

- تخلّصوا منه بسرعة. سأريك من تكون. أطلقوا عليه النار.

- ولكن يا سيّدي الأهالي يتجمّعون.

- لا يهم يجب أن نتخلّص منه وأنا أعرف كيف أحميكم.

كان اختباراً مباشراً لما تعلّمه لقمان من محسن حفيد مزون، باستخدام طاقاته الكامنة الخفيّة في الدفاع عن الحقّ، بالطاقات المنبعثة من يديه نتر المسدّس ثمّ السكين من يد أحد الرجلين المهاجمين، فصرخ بخوف:

- ما هذا إنّه ساحر، ساحر يا سيّدي؟

تمتم أبو نعيم مسروراً:

- أذهلتني يا ابن أخي.

صرخ الرجل النحيف:

- اهجموا عليه جميعاً، لن يخرج من هنا حياً.

تجمّع العديد من الأهالي وقد رأوا عراكاً غريباً، رأوا كيف أن لقماناً ابن قريتهم يحرّك يديه مواجهاً أتباع الرجل النحيف، الذين يهاجمونه، كأنّه يقاتلهم بأشعة غير مرئيّة.

وتمكن لقمان من شلّ حركاتهم. ومع تجمع الأهالي، وصلت سيارات الشرطة التي وعد بها الضابط، للقبض على الجناة.

- دكتور لقمان؟ ماذا يجري؟

- حاولوا الاعتداء علي وعلى عمي أبي نعيم.

- وشللت حركتهم عن طريق استخدام طاقاتك الكامنة؟ بارك اللّه بك، قيدوهم.

قال الرجل النحيف بوقاحة:

- أتعلم من أنا أيها الضابط؟

- بالطبع أنت ممثل مجموعة من أصحاب رؤوس الأموال، أرسلوك من أجل مشاريع غير مفهومة هنا، نحن نتابعكم، والتحقيق جار ولن يتوقف.

حاول النحيف الإفلات وهو يسبّ ويشتم:

- ابتعد عني، لن أسمح لك بوضع الأصفاد في يدي.

ولكنّ عناصر الشرطة أطبقت عليه، وأحاطت برجاله، سألهم الضابط:

- ومن اعتدى على سيارة الدكتور أمس؟

- نحن لا نعلم شيئاً عن الموضوع يا سيّدي.

- سنعرف كيف نستجوبكم.

- ستدفع ثمناً كبيراً لما تفعله أيها الضابط.

قال لقمان:

- اتركني لدقائق يا صديقي، سأخرج المعلومات منه أمامك، وسجل أقواله بأية طريقة.

- لا بأس، تفضل.

قال لقمان بهدوء:

- سأتابع إرسال الطاقة من يدي حتى تعترف للضابط عن الأنفاق المليئة بكنوز الذهب.

- أرجوك، سيقتلونني إن بُحت بالسرّ.

- وسأقتلك إن لم تحكِ للضابط ما تفعلون هنا؟

انفجر أحد أتباع النحيف:

- ما كان يجب أن نستمع لمعلمنا ونكسّر سيارتك.

تابع الضابط:

- إذن أخذت الأوامر من معلميك للاعتداء على سيارته؟ ولكن لماذا؟

- لأنهم خائفون منه. خائفون أن يكشفهم.

قال لقمان:

- خذ يا سيادة المقدم هذه المسجلة، وهذه الأشرطة والشرائح، لتفهم اللعبة، عثرت عليها في أحد الكهوف.

- سجل ذلك في المحضر.

- حاضر يا سيدي.

حاولت المرأة الانسحاب بهدوء، لحظها المحقّق:

- لحظة، إلى أين؟

- ليست لي علاقة بأحد أنا إنسانة حرة.

- آسف. أنت من ضمن المجموعة.

حاولت المقاومة، قال الضابط:

- ستخضعين للتحقيق، أنت واحدة منهم.

همست بغنج:

– سأمتّعك بجمالي يا سيّدي. وسأحكي لك كلّ أسرارهم شرط أن تطلق سراحي.

– أمري لله. ما قاله الدكتور صحيح و. .

اعترف الرجل بكل ما يجري وبعون المخابر البحثية لمعلميه في هرمونات النموّ التي تحرّض على تكاثر الأفاعي والزواحف الأخرى والحشرات والسيطرة على الحيوانات المتوحشة، وطريقة (كريلياني) في اظهار الأشباح البشعة. ولأنّ سعدا كانت تعيش وحدها أكثروا الحشرات والقوارض والزواحف حول بيتها وسط ظهور الأشباح والأصوات الغامضة، وفبركوا اتهامها بالسحر وأنّها سبب كلّ ما يجري من غرائب، فأحرق الأهالي بيتها وطردوها لتعيش كالمشرّدة.

***

صحب لقمان وعمّه الضابط ورجلين من رجاله، في اتجاه بئر العتمة وهو يقول:

– أعتقد أنّ في هذا البئر الكثير من الأسرار، وضعوا حوله الكثير من التقوّلات والخرافات وكانت جدّتي تحكي عن ساكنيه من الجان والعفاريت والمخلوقات الشريرة. ويبدو أنّ معلّمي هذا الرجل، الذي اعتقلته، وقدّم اعترافات مفيدة جدّاً في التحقيقات، استخدموا هذا الرعب الذي نشره الأهالي عن بئر العتمة لمصلحة اختراقهم لأرض القرية وسحب ثرواتها المدفونة.

وصلوا البئر، كانت هناك خيام منصوبة وليس من أحد فيها، ولكنّ حيوانات مختلفة بدأت في الظهور بشكل أخذ يتعاظم كلّما اقتربوا من موقع البئر، أمسك لقمان أحد الأجهزة التي كانت في الكهف، وعبث ببعض أزرارها وهو يقول:

– انظر يا سيادة المقدّم، كل ما تراه حولك يحرّك بهذه الأزرار.

كانت بعض الحيوانات قد استجابت وبدأت بالتجمّع. ثم تفرّقت وانتشرت في الجحور والفتحات في الأرض. وبدا أنّ الجهاز الذي يستخدمه توقّف عن العمل، رغم محاولات لقمان العبث بالأزرار:

- يبدو أنّ هذا الجهاز ليس رئيسيّاً، كأنّه جهاز مساعد.

- هل سندخل يا لقمان؟ نحن أمام المدخل.

قال الضابط آمراً عناصره:

- اللاسلكي يعمل في الداخل، ليظلّ اثنان منكم أمام الباب وليرافقني اثنان.

بين الأغصان اليابسة المتشابكة، التّي بدا أنّها تغطّي المدخل، ظهر رأس أفعى ضخمة، خرجت أمامهم وهي ترفع رأسها متحفّزة للانقضاض، مدّ لقمان يده صوبها وهو يستجمع طاقته فخفضت رأسها وانسلّت بعيدا، قال الضابط ضاحكاً:

- حتّى الحيوانات يا دكتور؟

- هي طاقة حيويّة يمكن استخدامها مع كلّ أنواع الحياة الضخمة، أقصد كلّ أنواع الحياة عدا الأحياء الدقيقة، وهذا يطول شرحه.

- لنبدأ الدخول.

كان هناك درج اسمنتي يبدو أنّه شيّد حديثاً وقد توزّعت الإضاءة في الداخل. ولدهشة الجميع كانت هناك ممرّات موزّعة وصناديق من الخشب، وما إن أصبحوا في الداخل حتّى

سمعوا هدير محركات بدأ صوتها يقترب، ثمّ ظهرت عربة تجر خلفها ثلاث عربات أخرى، وتوقّفت ثم هبط من العربة الأولى سائقها ومعه معاونه. فوجئ الرجلان بوجود الضابط ومن معه. كان الارتباك والخوف ظاهراً عليهما:

- ماذا تفعلان هنا؟

- نقوم بعملنا يا سيّدي.
- ماذا تحوي هذه الصناديق؟

قال أحد العنصرين اللذين يرافقان الضابط:

- هل نفتّش الصناديق؟
- نعم. ابدأا.
- ولكن يا سيّدي هذا لا يجوز سيعاقبنا المعلّم.
- المعلّم؟ أين هو هذا المعلّم؟
- أتسمح لنا أن نخابره، هو في المدينة القريبة.
- سأكلّمه بنفسي، اطلب الرقم. هل التغطية حاضرة في هذا العمق؟
- لدينا تغطية خاصّة ليست لها علاقة بشركات الجوّالات هنا.

همس لقمان: ـ عن طريق الأقمار الصناعيّة.

- آه. فهمت. حسناً اطلب منه أن يحضر إلينا، قل له أنّ خطراً شديداً تتعرضان له تحت الأرض. ويجب أن يحضر أو يرسل أحداً.
- حاضر يا سيّدي.
- انتبه جيّدا نحن نسمعك ونراقبك.

كانت بعض الصناديق قد فتحت وظهرت للعيان تماثيل من الذهب وقطع أثريّة بدت مكدّسة فوق بعضها بحرفيّة، حتّى لا تتعرض للكسر أو التلف. وفي بعض الصناديق الأخرى سبائك من الذهب الخالص وأشكال أخرى غير واضحة المعالم، همس محسن:

- آثار قديمة يبدو انّها كنز تراثي حقيقي.
- معك حقّ. أنت لماذا لم تتصل بمعلّمك؟
- الخطّ مشغول يا سيّدي.

- افتح سمّاعة الهاتف لنسمع جميعاً.

- طيّب طيّب، يا سيّدي.

كان الخطّ مشغولاً، أمسك الضابط بالهاتف وطلب من العامل إعطاءه الرقم، ثمّ ضغط على الأزرار وسمع صوتاً في الطرف الآخر""آلو"" فتح السمّاعة وأعطى الهاتف للعامل وهو يقول بصوت منخفض:

- أنا معك. احذر أن تخطئ.

عاد الصوت من الطرف الآخر:

- آلو، ماذا هناك يا حسّان؟

- سيّدي، نحن نتعرّض لخطر شديد تحت الأرض.

- حتّى أنتم؟ ما هو نوع الخطر؟

- نرجوك يا سيّدي، لا نستطيع أن نشرح لك أكثر. أسرع بالقدوم قد تنقذ ما يمكن إنقاذه.

- حسّان وضّح لي، هل الشرطة دخلت البئر؟

ولكن في الجهة الأخرى قريباً من المقبرة، كانت مزون تعاني في علاج سعدا، التي يبدو أنها زهدت في الحياة.

انتصار الفضيلة المنسيّة

فجأة وجد نفسه وحيداً، لم يقف أحد معه، حتى أقرب الناس إليه فبعد أن كان مقصداً للمرضى ومحطاً للأنظار بين الأطباء الناجحين، وبعد أن كانت عيادته تضجّ بالحركة الدائمة، صمت كل شيء فجأة، حتى رنين جرس الهاتف الملحّ، لأخذ موعد، صمت أيضاً.

كيف جرى ذلك بهذه السرعة دون أن يتحقّق أحد من صحّة التهم التي وجهت ضده؟ أصبح مداناً، متورطاً بقضايا كبيرة، وكثر الشهود الذين قدّموا خدماتهم المجانية وشهاداتهم على ماضيه المضطرب، وكثرة فساده.

استعاد أحداث أيامه الأخيرة منذ أن كلّفوه بتلك القضيّة الخطيرة كما سمّاها، وهي فحص عيّنات من قطعان من الغنم، تربض في أكبر المرافئ في البلاد، جرى استيرادها من قبل أكبر تاجر معروف في البلد.

كانت الدكتورة أحلام ترافقه، وهي طبيبة شرعية، وهو مختص بأمراض الدم أجرى اختباراته في مخبر حيوي تابع لأكبر المؤسسات الصحيّة في البلاد، في فحصه للعينات رأى أن دم الأغنام يحمل بعض الخلايا الغريبة.

ورغم تأكيد الدكتورة أحلام أن الأغنام صحيحة البدن، إلا أنه أصرّ على موقفه، وجاءه زائر في تلك الليلة التي قدّم فيها تقريره، فتحت زوجته الباب:

-الدكتور عادل هنا؟

-نعم. من نقول له؟

-مندوب شركة (المعنى للاستيراد والتصدير).

أدخلته إلى الداخل فجلس في الصالة وأعلمت عادل بشخصيّته، فأتاه بعد مدّة قصيرة:

-دكتور عادل، أنت رجل معروف بعلمك وثقافتك ومحبة الناس لك.

-شكراً لك على هذا الإطراء.

- هي ليست مجاملة، أقول كل هذا الوضع المتميّز لك، لا يجب أن تهدمه، من أجل أسرتك وأهلك وأصدقائك، ستتضرّر كثيراً.

-أنا؟ لماذا؟ ماذا فعلت حتى أتضرّر؟

-أرسلني عاصم بيك لأعرض عليك.

-صفقة.

-سمّها ما شئت، الخيار الأول، أن تسحب تقريرك وتنال أكبر مبلغ تحلم به في حياتك وتصبح المستشار العلمي لشركتنا.

-والخيار الثاني؟

أن ترشح لمنصب علمي رفيع في منظمة دوليّة، وعاصم بيك يضمن لك الفوز به مع كل المكاسب التي يمكن أن تحقّقها، بالطبع بعد أن تسحب تقريرك.

-والخيار الثالث، أن أصبح في مركز رفيع هنا؟

-لا. الخيار الثالث أن تدمّر كل ما بنيته في حياتك، إن لم تسحب تقريرك، فلدينا طرق قد لا تخطر على بالك يمكنها أن تعيدك إلى القاع، مع كل المخازي التي ستلحق بك جراء هذا السقوط، إذا صمّمت على متابعة معركتك ضدّنا.

-أتيت تهدّدني؟ وفي بيتي؟

- استغفر الله يا رجل، أنا أنقل إليك رسالة من سيدي فقط، لست سوى رسول، ما قلته لك، هو ما أمّنوني على إيصاله لك بالحرف.

-وصلتني الرسالة، قل لمن أرسلك أنني أرفض رسالة التهديد هذه وسأظل على موقفي.

-لا تتعجّل، لا أريد الجواب الآن، فكّر في الأمر جيداً، أرجوك يا دكتور عادل خذ الأمر بجدّية، أنت لا تعرفهم، قد يدمّرونك تماماً.

-ليفعلوا ما يشاؤون، لست أخاف منهم.

-اهدأ أرجوك، فكّر هذه الليلة، وإن قبلت أيّاً من الخيارين الأول والثاني يمكنك سحب تقريرك غداً وتغييره ليصبح إيجابياً، عن إذنك.

أقبلت سعاد زوجته ومعها كؤوس العصير:

-أحضرت شراباً، لماذا خرج بهذه السرعة؟

-عرض ما عنده، وذهب، انتهت مهمته.

-كأنه خرج وحده وأقفل الباب وراءه، لِمَ لمْ ترافقه؟

-كنت مذهولاً مما حدث.

-اشرب العصير وحدّثني.

-لا أشعر بالقدرة على الحديث، سمعت كلاماً لم أتوقعه في حياتي، أذهلتني صراحة ذلك الرجل، ووقاحة الرسالة التي أوصلها لي.

حكى عادل لسعاد ما جرى وهو يرتعش من الغضب، فحاولت تهدئته، وفوجئ بها تناقشه في عرض الرجل، وهي تبرر ذلك بالخوف عليه من نقمتهم.

-ماذا تقولين يا سعاد؟

-يا حبيبي، حاول أن تهدأ وافهمني، الطبيبة الشرعية أحلام، وهي طبيبة بيطرية أكدّت أن الأغنام صحيحة البدن ولا مرض فيها.

-لكن التحاليل أكّدت أن دم الأغنام فيه خلايا غريبة، ربما كانت بيوض ديدان أو بكتيريا من نوع خاص لم أتمكّن من معرفتها، المهم الأغنام ليست سليمة، وليس دوري أن أعرف مرضها بل أن أحذّر من أنها مريضة.

-وستجعلهم يخسرون ملايين الليرات؟

نظرت إليه بصمت للحظات ثمّ سألته:

-أمعقول أن لا تتمكّن الدكتورة أحلام من اكتشاف هذا المرض؟ هل أريتها التحاليل؟

-نعم، وأصرّت على موقفها.

-إذن، تراجع عن موقفك واقبل أحد الخيارين اللذين عرضوهما عليك.

-وأنشر مرضاً مجهولاً بين الناس، (10) آلاف رأس غنم قد تنشر المرض بين أضعاف أضعاف هذا الرقم.

-أنت تتخيل هذا، لِمَ لمْ تقنع أحلام بمخاوفك؟

-أحلام تلقّت اتصالاً من (عاصم بيك) ويعلم الله العرض الذي قدّمه لها.

-أنا أعرف أحلام جيداً، ليست من هذا النوع.

-وتعرفينني جيداً، أنا أيضاً لست من هذا النوع، ولكنك تدفعينني لأصبح شخصاً آخر، بذريعة خوفك عليّ.

-ألا تصدق أنني خائفة عليك فعلاً؟

-سعاد، أنت زوجتي وحبيبتي، وشريكة حياتي، ولكني لن أبيع ضميري من أجل مركز أو مال، وأسبب الأذى للناس.

قالت بغضب: ـ افعل ما تشاء، ولن أكون مسؤولة عن العاقبة.

صفقت الباب وراءها وخرجت غاضبة، استلقى عادل منزعجاً، قلقاً، وهو يشعر باليأس من وقوفه وحيداً. شعر أن سعاداً بابتعادها عنه، سترهق كاهله بالعذاب، لذلك خرج بعد دقائق يحاول إرضاءها.

ولكنها تصنّعت السلبيّة، لعلّه يقتنع بعرض (عاصم بيك) حتى لا يتدمّر البيت الذي بنته معه، والذي يضم ثلاثة أطفال صغار.

كان عادل طبيباً ناجحاً ومشهوراً، ولم يكن جشعاً في تعامله مع المرضى، خاصة وأن أمراض الدم تنتشر انتشاراً كبيراً في السنوات الأخيرة، كان كثيراً ما يعالج الفقراء ويصرف لهم العلاجات المناسبة من جيبه الخاص، مشفقاً على أوضاعهم وقد ازداد الحصار على الناس في السنوات الأخيرة نتيجة الغلاء المتفاقم، وكثرة أعداد العاطلين عن العمل، والفقر وسوء التغذية يجلبان المرض أحياناً، وقد تتفاقم تلك الأمراض بالإهمال مؤدّية إلى الموت.

لم يدر كيف رشّحوه لإجراء اختبار الدم على عيّنات من تلك الأغنام، فهو لا يتعاطى مع مثل تلك الأنواع من الدم، ولكن الصدفة قادته لذلك، إذ تلقّى هاتفاً من أحد المحلّلين المخبريين المختصين بفحص دم الحيوانات الوافدة إلى البلاد عن طريق التجار.

-دكتور عادل، أنا آسف على إزعاجك اسمي (د.منير) أعمل باختصاص بيطري، في المخبر المركزي لتحليل الدم في أكبر المؤسسات الصحيّة هنا.

-تشرفنا دكتور منير، خير؟

-أنا مسافر في رحلة إلى الخارج للعلاج، وليس لديّ وقت لتنفيذ المهمة التي كلفوني بها، وقد رشحتك لتقوم بها.

-أي نوع من المهام؟

- تحليل دم عينة من الأغنام الواردة إلينا، إنه أمر سهل بالنسبة إليك أعرف أن لديك القدرة على ذلك، نظراً لانتقال أمراض من الحيوانات إلى الإنسان، عن طريق العلاقة المباشرة والاحتكاك بقطعان الحيوانات في المراعي.

-أو عن طريق ألبان تلك الحيوانات ولحومها، هذه عملية مفهومة.

-إذن أنت توافق على هذه المهمة، مع الأسف لا يوجد خبير بتحليل الدم الحيواني سواي هنا، وأعلم من محاضراتك التي كانت لا تفوتني، عمق معارفك في هذه القضايا العلمية المهمة.

-ولماذا طلبوا تحليل دم هذه الحيوانات؟ أيشكّون بإصابتها بمرض ما؟

-في العادة لم يكونوا يطلبون مثل هذه الطلبات، ولكن رسالة نشرت في صحيفة أجنبية، حكت عن إصابة الأغنام بتلك الدولة التي وردّتها بنوع غريب من المرض، هكذا أبلغني المسؤول في المراقبة الصحية بشكل سرّي.

-قد لا يوافقون على نتائج تحليلي؟

-أنت طبيب معروف وكتبك العلميّة المبسطة تنتشر بين الناس، وهم يقبلون على قراءتها.

- أستغرب ذلك فعلاً يا دكتور منير، هذه أول مرّة يطلب إليّ إجراء مثل هذه التحاليل.

-أرجوك ساعدني، أنا في ورطة حقيقية.

-وليس سواك من مخبري آخر؟

-كنا أربعة، هاجر ثلاثة منّا، ولم يبق سواي.

-هناك الكثير من مخابر التحليل، يمكنك الطلب من أي من مخبرييها مساعدتك في ذلك، ولماذا أنا؟ أنا اختصاصي في أمراض الدم؟

-ولكنك تعرف التحليل جيداً.

-أنا اختصاصي بأمراض الدم عند الإنسان وليس عند الحيوان، تعلم أن هناك فارقاً كبيراً بينهما.

-الذي أعلمه أنك أول من تحدّثت عن مرض جنون البقر عندنا، وعن (الإيبولا) وعن التهابات الكبد الفيروسية عند المجترّات، وصنّفت أمراض الدم عندها بشكل جيد ومتميز أيضاً، لدرجة أن إحدى الجامعات كرّمتك لذلك.

-أمري لله، وإن كنت غير مقتنع بالفكرة.

استعاد عادل كل ذلك وهو يتمدّد على الكنبة مفكّراً بما جرّه قبول ذلك العرض عليه من مآس، كان طبيباً ناجحاً يقصده المرضى من مناطق بعيدة، وكان زوجاً سعيداً وأباً لثلاثة أطفال يعيش وزوجته حالة من الاستقرار، فلا منغصات ولا مشاكل.

ما الذي غيّر زوجته هكذا؟ لماذا لم تقف معه في إصراره على تقريره؟ هل كان مخدوعاً بها؟

- سعاد أرجوك، لا تتركيني وحيداً، أنت زوجتي وحبيبتي وكل عالمي.

-لو كنت حريصاً عليّ وعلى أطفالك، لما تصرّفت هكذا.

-وكيف لي أن أتصرّف؟ أن أترك أغناماً مريضة، تنقل إلى البلد، وتنشر المرض بين الناس؟ هذا قرار يقتلني يا سعاد، أن أمسح كل رجولتي وشجاعتي ومبادئي وأنهار، وأعلن لهم استسلامي.

-أنت تتخيّل معارك ليست موجودة، اعتمد على قرار الدكتور أحلام. التي أكدت أن الأغنام سليمة، واسحب تقريرك، وأبدله بتقرير يشابه تقريرها.

-لا أستطيع، ضميري لا يسمح لي بذلك.

-إذن ستخسرني، وتخسر أطفالك، ألم يهدّدك (عاصم بيك) بذلك؟ ألم يهدّدك بتدمير بيتك وسمعتك؟

-الذي أعرفه أن المرأة الوفيّة، تقف إلى جانب زوجها في تصدّيه للباطل ولا تنسحب تاركة إياه يواجه الظلم وحيداً بصدره.

-لقد أشبعنا هذا الموضوع بحثاً.

-سعاد، أرجوك لا تفعلي ذلك، ما الذي ستقولينه لطفلنا (عامر) إنه ذكي قد لا يقبل الرحيل معك إلى بيت أهلك؟

-هي مشكلتي وليست مشكلتك.

-ولكنه ابني، هو وأخته ثم ذلك الرضيع الصغير.

-لو كنت تشعر بمحبتك لهم، لم تدمّر حياتهم؟

-استغفر الله العلي العظيم، يبدو أنني كنت أتوهّم السعادة، أنت التي تدمرين بيتك وأطفالك، بترك زوجك يخوض معركته العادلة وحيداً، افعلي ما تشائين، الله معي، ولن أخاف شيئاً.

وهكذا رحلت والأطفال، دون أن يجرؤ على وداعهم، رغم بكاء (عامر) وأخته وصراخهم، في اليوم التالي ذهب إلى العيادة، كان المرضى ينتظرون حسب مواعيدهم.

دخل إليه مريض غريب، ثم تبعه ثاني وبعد أن أغلقا الباب خلفهما، انتفض المريض الأول فجأة وقال:

-لم يصل التقرير بعد إلى المحكمة، يمكنك سحبه غداً يا دكتور.

-اسمع يا دكتور عادل كما حرمناك من زوجتك وأطفالك سنحرمك من المرضى.

-سندمّر سمعتك ومستقبلك.

-اخرجا من هنا قبل أن أرسل في طلب الشرطة.

-سنخرج بالطبع ولكن جئنا نحذّرك للمرّة الأخيرة.

خرجا وأغلقا الباب خلفهما:

"يا إلهي، يبدو أن المعركة أصبحت جديّة فعلاً، هل هدّدوا سعاد لتنسحب ذلك الانسحاب المخزي أيضاً؟"

دخلت الممرضة وهي ترتجف:

-دكتور، هذان المريضان أساءا الأدب أمام المرضى، وقالا كلاماً سيئاً عنك.

-ماذا قالا؟

- قالا إنك طبيب دجّال، وأنك كدت تقتلهم بدوائك، لقد نظر المرضى الآخرون إليهما باستغراب.

-لابأس، أدخلي المريض التالي.

-خرج نصفهم متأثرين بكلامهما.

خفّف عنها: ـ لابأس، لا تنزعجي.

أنهى عيادته في ذلك اليوم باكراً وخرج يتمشّى قليلاً إلى سيارته التي أوقفها كالعادة في مكان بعيد، وهو يقطع الشارع على الإشارة، أمسكته امرأة من ذراعه وشدّته في الاتجاه المعاكس.

فتبعها مستغرباً، كانت تضع غطاءً على رأسها ما لبثت أن نزعته وهي تصرخ:

-أيها الوغد الوقح، تتحرّش بي هكذا أمام الناس؟

-اتركيني، أنت تمسكين يدي.

-حتى أظهرك للناس، أنت تتحرّش بي، أترون أيها الناس، هذا الوقح يتحرّش بي، أين الشرطة؟ أين الشرطة؟ لن أفلتك أيها الوغد!.

والتمّ الناس على صوتها وعادل يحاول دفعها عنه:

-أنا لا أعرفك، ولم أمسّك بسوء، اتركي يدي.

تدخّل أحد الناس محاولاً إبعادها:

-ماذا تقولين أيتها المرأة؟. إنه طبيب معروف، مستحيل أن يفعل هذا؟

تدخّل رجل كان إلى جانبها طيلة الوقت:

-أنا رأيته يتحرّش بها، وأستطيع أن أقسم على ذلك.

صرخ عادل وهو يكاد يتميّز من الغيظ: ـ أنت تكذب، كما تكذب هي، اتركيني.

-لن أتركك حتى تحضر الشرطة.

وقرّبت فمها تهمس في أذنه: ـ إنه الإنذار الأخير لك.

وأكمل الرجل: ـ اسحب تقريرك، سترى الويل إن لم تسحبه.

عاد من شهد بأخلاقه يحتج: ـ يا جماعة، حرام، هذا الرجل بريء، أنا أعرفه، إنه مثال الأخلاق.

لكنّ رفيق المرأة قال له ساخراً: ـ أنت مخدوع به، انظر إليه، لقد صمت، الصمت يعني الاعتراف.

حاول عادل أن يتملّص من قبضتها: ـ ابتعدي عني أيتها المهووسة أنت وهذا الوغد.

قال الرجل: ـ ستحضر الشرطة، لا تتركي يده، سأشهد معك.

-أيها الوغد، العمليّة مدبّرة إذن.

بدأ يحكي للناس:

-يريدان أذيتي، لأنسحب من قضية مرفوعة ضد من يعملان معه، أيتها المجنونة اتركيني.

نظر إليه الناس بحياديّة وازداد تجمّع الفضوليين.

همس له الرجل ساخراً: ـ ستسجن بتهمة التحرّش، صراخك لن يخدع أحداً.

***

بصعوبة بالغة، تركه رئيس المخفر بعدما شرح له شيئاً عن القضية التي يضغطون عليه ليتنازل عنها.

وأصرّت المرأة على رفع دعوى تحرّش، وشهد ذلك الرجل معها، وشعر عادل بالقهر وهو يقدّم بطاقته التي تثبت أنه طبيب، وصدف أن تعرف عليه أحد رجال الشرطة.

وهكذا خرج من المخفر حزيناً يائساً، اتصل بسعاد يطمئن على الأطفال فلم ترض أن تتكلم معه، وأقفل أخوها السماعة معتذراً.

لم يعرف كيف يتصرّف، عرف أن معركته طويلة وقاسية، وأنه قد يخوضها وحيداً لم يعثر على اسم في ذاكرته، لصديق أو قريب يمكن أن يقف معه، أو يمكن أن يخفف عنه على الأقل.

رنّ جرس الباب، فنظر من العين السحرية بهدوء فوجد وجهاً لرجل لا يعرفه لا بد وأنه شخص آخر أرسل إليه ليهدّده بسحب التقرير.

لم يرغب في فتح الباب، تكرّر رنين الجرس لعدّة مرّات، ثم انقطع، وعاد إلى همومه وشجونه، ورن جرس الهاتف إلى جانبه، ودون أن يفكر أمسك السماعة.

"لم تقتنع بعد بأننا نستطيع الوصول في تدميرك إلى أبعد مدى، لا تغلق السماعة ، ودعني أقل لك شيئاً، لن ترى أيّاً من أطفالك فيما بعد، زوجتك امرأة تعاونت جيداً، وسنكافئها. لم يفت الأوان، عد إلى رشدك واسحب التقرير، وإلا سيكون ردنا عنيفاً."

فجأة خطرت على باله فكرة، لِمَ لا يسجل هذه التهديدات اللفظيّة ويعرضها على الشرطة، ربما ستقف إلى جانبه.

نهض يبحث عن مسجله الصغير في المكتب، لم ير شيئاً، انتقل يفتش عنه في زوايا البيت دون نتيجة، كيف غابت عن رأسه تلك الفكرة؟

ارتدى ثيابه على عجل، وهبط ليشتري مسجلاً صغيراً قبل أن تغلق الأسواق. لم يرغب بقيادة سيارته، فأوقف سيارة أجرة.

وحين وصل السوق، وأخذ يفتش عن المسجل في واجهة المحلات، توقفت سيارة قربه ونزل منها رجل دفعه بقسوة على الواجهة الزجاجية فكسرها ووقع على الأرض، وصعد الرجل السيارة التي تحركت بسرعة كبيرة.

لم يكن هناك سوى عدد قليل من المارة لم ينتبهوا لما حدث، وخرج صاحب المحل مع عماله، وهو يرغي ويزبد، اعتذر منه عادل، والدم ينزف من رأسه. ودفع له مبلغاً محترماً، ثم اشترى مسجلة صغيرة مع بطارياتها وأشرطتها، وأوقف سيارة أجرة لتنقله إلى المشفى التخصّصي الذي يعاين فيه المرضى مرتين في الأسبوع.

ضمدوا جرحه، بعدما أعطى لهم مبرراته لأسباب الحادث، وخرج ليستقل سيارة أجرة من جديد عائداً إلى بيته.

ولسوء حظه وجد رسالة على الباب تقول "هذا غيض من فيض يا دكتور" عرف أنهم يقصدون حادث الاعتداء عليه، ولم تكن الرسالة بحدّ ذاتها تحمل أثراً لتهديد يمكن أن يستغلها في صالحه.

أغلق الباب ورأسه يؤلمه، وشعر بالقهر، فانفجرت الدموع من عينيه، بكى طويلاً قبل أن يتمالك نفسه ويأخذ حبتي منوّم، ونام في ثيابه المدمّاة.

استيقظ نحو الخامسة صباحاً، كان يشعر بارتخاء في جسمه، بدّل ثيابه، وهو يشعر بالنعاس، وعاد إلى النوم، فرأى حلماً غريباً.

رأى أمه الميتة منذ ثلاث سنوات وهي تتحدّث إليه، كأنها ما تزال حيّة بصوتها الجهوري القوي:

"لا تتردّد في اختيار طريقك يا بني، أنت على حق، لا تيئس، سترى من يساعدك سمّيتك عادلاً، وأنا أتمنى أن تكون ملتصقاً بهذا الاسم."

-وماذا أفعل يا أمّاه وأنا أرى دماري وانهيار أحلامي، وتخلّى الجميع عني؟

"كن قوياً يا بني، الحق لا ينهزم أبداً، ولو بدا أن الباطل هو المنتصر."

غابت أمه، ورأى نفسه في غابة تتكاثر فيها الوحوش المفترسة، وهو يقطع طرقها الموحشة والظلام يتكاثف.

استيقظ نحو التاسعة على رنين جرس الباب الخارجي، لم يع وضعه وما تزال آثار النوم عالقة بعينيه، حين فتح الباب، رأى صبيّاً صغيراً يقف أمام الباب وبيده مظروف، أغلق الباب وفتح المظروف.

"هيّا تحرك بسرعة، يجب أن تصل قبل العاشرة إلى المحكمة لتسحب تقريرك، نتمنّى أن تستعيد وعيك سريعاً، وبالتوفيق يا دكتور. استلمت مبلغاً محترماً لقاء سحب التقرير، نفّذ وعدك."

لماذا وضعوا هذه العبارة الأخيرة؟ لا يوجد في المظروف شيكات أو أموال عينية، هل يمكن أن يقدم هذه الرسالة للشرطة وفيها هذه العبارة؟ أولاد الأبالسة، إنهم يعلمون ما يفعلون.

خرج من المنزل، وقاد سيارته وسط الزحام شعر بأن هناك عيوناً تراقبه وأن أكثر من سيارة تتبعه، إنها كوابيس حقيقية.

في المستشفى التخصّصي خلع قبعته ليكشف المختص عن جرحه، ثم دخل إلى قسمه وهو يسمع تعليقات العاملين حول القبعة التي يرتديها فوق جرس الرأس.

جال على المرضى طويلاً، وحين عاد إلى مكتبه المخصّص في جناح الأطباء دخل إليه أحد زملائه وهو الدكتور (عواد).

-خير يا دكتور عادل، قالوا لي أنك أتيت إلى هنا أمس والدم ينزف من رأسك ويبلل ثيابك.

-حادثة بسيطة، الحمد لله أتت العاقبة خيراً؟

همس إليه بصوت خفيض: ـ اسمع يا دكتور، كيف تورّطت وقبلت أن تدرس عيّنات من دم الأغنام المستوردة، وأنت مختص بالدم البشري؟

-معك حق، كانت ورطة، سامح الله الدكتور منير، قال إنه مضطر للسفر، ضغط عليّ كثيراً حتى قبلت، منير مختص بتحليل الدم الحيواني للمجترات، تابع للمركز البيطري.

- لم أسمع به من قبل، ولكني أظن أن في الأمر لعبة خطيرة، يقف وراءها بعض زملائك المختصين بأمراض الدم، وقد كثر المرضى الذين يقصدونك للعلاج، سمعت نتفاً من الحديث أمس. في (مقهى) النقابة.

-ماذا تقول يا دكتور عواد؟ معقول؟

-نعم، إنها قصة محبوكة جيداً، هم من دلّوا ذلك الطبيب البيطري عليك، لإتمام الفضيحة، ويتنصل من مسؤوليته حول نتائج التحليل ويورّطك مع التجّار الذين يتمتعون بقدرات كبيرة.

أذهلته هذه الكلمات، وبدأ يلملم خيوط الأحداث، قبل أن يرن الهاتف إلى جانبه.

(- أصدرت المحكمة قراراً يرفض شحنة الأغنام: أضعت علينا ملايين الليرات، ولكننا سنستأنف الحكم بسرعة، وسندمّرك أيها الوغد.).

ومرّ الوقت عليه وهو يجلس محتبس الأنفاس، متوتّر الأعصاب، حين فتح الباب فجأة، ودخلت سيدة عجوز:

-دكتور عادل، أنا صديقة أمك ألا تعرفني؟ أنا أم هادي.

-أم هادي؟ آه أتذكّر، منذ زمن طويل لم أرك يا خالة.

-تعال معي يا بني، يبدو عليك الإرهاق.

-إلى أين؟ إلى أين ستأخذينني يا خالة؟

-إلى القرية، ستقضي معنا بضعة أيام، لا تقلق اتصلت بالممرضة في العيادة، وقدمت طلباً هنا في المشفى لمنحك إجازة، كل شيء جاهز.

-وكيف وصلت إلى هنا؟

-أتتني أمك في الحلم وطلبت مني أن أبعدك عن المدينة، أنا أراها دائماً.

-حسناً يا خالة دقائق وأكون بصحبتك.

كأنّ نجدة هبطت عليه من السماء، مشى معها، حتى خرجا من المستشفى، أشارت لسيارة كانت تنتظرها، كانت سيارة قديمة يقودها رجل بلا ملامح كما أطلق عليه.

تحركت سريعاً وسط صخب المدينة، وازدحامها مارقة ببراعة بين السيارات حتى خرجت من المدينة على الطريق السريع.

كان عادل يشعر أنه يتخلّص من كابوس طويل، وهو يرمق المشاهد من حوله، وقد أحسّ أنه يطير مرتفعاً بين السحب في رحلة خرافيّة.

ولإحساسه بالأمان، شعر بالنعاس يداعب أجفانه، والعجوز إلى جانبه تحدق في البعيد، ففغا -كما أعتقد - للحظات، وحين صحا وجد أن السيارة تتوقف في مرتفع، ميّزه جيداً، كان قريباً من الأرض التي دفنت فيها أمه.

فتحت العجوز باب السيارة وأشارت إليه أن يتبعها، ففتح الباب المجاور له وتطلّع بفضول صوب السائق، كان رجلاً ممسوح الوجه، كأنه بلا عينين أو أنف واضح أو فم بشفتين.

نادته العجوز أن يسرع باللحاق بها، فركض مبتعداً وقد صمّم أن يسألها عن السائق والسيارة، وحين ألقى نظرة إلى الوراء بعد أن ابتعد خطوات عديدة عن مكان السيارة، رآها تتحرك بدون صوت وهي تنهب الأرض، قبل أن تختفي.

- من أين جلبت هذه السيارة يا خالة، يبدو سائقها غريب الشكل والملامح؟

-إنه رجل مسكين، كثيراً ما يخرج معنا، ورغم أن سيارته قديمة، ألا أنها سريعة.

-بالفعل، اعتقدت أنني غفوت لدقائق وإذا بي أنا هنا.

-كنت متعباً مرهقاً، ستزور قبر والدتك وستذهب معي، لنرتاح قليلاً في البيت، ثم ترافقني في رحلة مفيدة لك كثيراً.

وقف عادل أمام قبر أمه وشعر بالدموع تترقرق في عينيه. حتى وهي ميتة تقدّم له العون، أتت لصديقتها في الحلم، وطلبت منها إحضاره إلى القرية ليقضي فيها بضعة أيام، بعيداً عن القلق والخوف ومطاردة الأشرار المستمرة له.

عادت إلى ذاكرته عزلتها وعذابها لأعوام طويلة، كانت فيها صابرة متحمّلة الضنى والعذاب والوحشة، ولا أحد من أهلها إلى جانبها، قطعت عليه العجوز شروده وحزنه.

-هيّا يا بني يجب أن نذهب، ستقيم معي في منزلي ليس بعيداً كثيراً عن هذه المنطقة، يمكنك زيارة قبر أمك متى تشاء.

-أنا لا أتذكّر كثيراً موقع البيت يا خالة، تعلمين لم أكن آتي إلى هنا إلا لزيارة أمي، ولا أزور أحداً غيرها.

-لابأس يا بني، سنقطع الحقول بعيداً عن الطريق الملتوي لنصل بزمن أقصر.

كانت تمشي بسرعة وهو يكاد يركض للّحاق بها كأنها تقفز قفزاً، وقد استغرب خفة حركتها، وهي في سنّ يقارب سن أمه التي ماتت عن الثمانين عاماً.

لم يكن يشعر بالبرد رغم أن هواءً بارداً أخذ يهب من جهة الغرب، وقد بدأت السحب تتجمّع متراكمة وممتدة.

-دقائق ونصل، عجّل قبل أن يهطل المطر.

-أمطار الخريف، إنها أمطار تنتظرها الأرض بعد فصل الجفاف.

-وأعتقد أنها ستكون غزيرة.

سمع صوتاً يناديه:

-كيف حالك يا دكتور عادل؟

التفت ينظر إليه كان رجلاً كهلاً أصلع الرأس يلوّح له: ـ أنا بخير يا عمّ، شكراً لك.

-أصحيح أن أرضكم معروضة للبيع؟

-لا أدري يا عمّ، لم أسمع بهذا الكلام.

-قالوا لي إن والدك يعرضها للبيع، أرجوك استفسر عن الموضوع، ابني يرغب بشرائها، هي ملاصقة لأرضنا.

-إن شاء الله يا عم.

-تفضل اشرب القهوة، سيهطل المطر سريعاً، إلى أين أنت ذاهب؟

-أنا ذاهب إلى بيت الخالة (أم هادي).

قال مندهشاً: ـ ذلك البيت المهجور. لماذا؟ أترغب بشرائه؟

شدّته من يده: ـ لا تتوقف وتتبادل معه الحديث أكثر، هيّا يا بني، ودّعه بسرعة.

أشار للكهل: ـ أنا لا أرغب بشراء ذلك البيت، أنا أزوره فقط.

-زيارة؟ أمر غريب.

-عن إذنك يا عم.

وبعد أن ابتعدا قليلاً سألها: ـ لِمَ لمْ يسلم عليك يا خالة؟

- اتركه لم يعد مشغولاً سوى بالصفقات التي يعقدها لأجل ابنه المتقاعد من الشرطة، والذي يرغب بتوسيع أراضيه وأطيانه.

وبدأ رذاذ المطر يتزايد، ولكنهما كانا قد وصلا إلى البيت الذي تقصده العجوز، كان بيتاً طينياً قديماً، حوله بعض أشجار التوت والخروّب، وقد سوّرت منطقته بسور عريض على الطريقة القديمة.

فتحت العجوز بابه بمفتاح ضخم، كانت هناك مدفأة حطب مشتعلة، بلهب خافت، أعطت البيت دفئاً وأماناً كما اعتقد عادل، فلم يكن يفتقد

في حياته شيئاً في تلك اللحظات سوى الإحساس بالأمان، وقد بدأ يشعر فيه وأم هادي، ترتب الصالة الرئيسية في البيت.

اصطحبته إلى الغرف الداخليّة، حيث كانت هناك غرفتان واسعتان للنوم، كان في إحداها مكتب ضخم بكرسي من القش، فوقه مكتبة عليها كتب قديمة مجلّدة بجلد سميك.

استأذنته لبعض الوقت لتحضرّ له بعض الطعام، فسألها:

-أتسكنين وحدك هنا يا خالة؟

-نعم يا بني، أولادي هاجروا من هنا، هادي في البرازيل مع زوجته وأولاده وهاديا متزوجة في استراليا، ونور الدين مات وأخته في حادثة سيارة، كانا يدرسان في الجامعة وأثناء عودتهما في عطلة نصف السنة، حدث لهما ذلك الحادث الفظيع، فماتا معاً.

-آه. أتذكر ذلك يا خالة، كان ذلك منذ نحو خمس سنوات، لقد بكتهما أمي طويلاً.

-سأذهب الآن، اعتبر نفسك في بيتك يا بني، سأحضر لك الطعام.

كان الضوء كافياً ليتفحّص عناوين المخطوطات القديمة، التي اعتبرها كنزاً نفيساً، كانت مخطوطات في الفلك والفلسفة والحساب، ولفت أحدها انتباهه، كان كتاب مذكرات لرجل يدعى (سيف اليماني) يحكي فيها عن العثمانيين واضطهادهم النّاس.

ازداد المطر هطولاً، وصحبه البرق والرعد، شعر بالقشعريرة، فخرج إلى الصالة يبحث عن أم هادي.

لم تكن موجودة، يبدو أنها ليست في البيت كيف خرجت والمطر يتدفق منسكباً كأفواه القرب؟

شمّ رائحة طعام، ورأى قرب المدفأة قدراً مغطّى، وإلى جانبه صحون وملاعق، فتح الغطاء، فشاهد ثريداً من الطعام في داخله قطع من اللحم المسلوق.

وشمّ رائحة الخبز الساخن في الجانب الآخر من المدفأة، فسكب لنفسه وبدأ يأكل متلذّذاً بذلك الصنف من الطعام الذي لم يعرف تسميته، كان خليطاً من الخضراوات واللحم، الممتزج مع التوابل، مما جعله شهيّاً.

أكل حتى شعر بالشبع، وجلس ينتظر العجوز، وقد شعر أنه تعجّل بأكل الطعام وحيداً دون أن ينتظرها، شعر بالخدر يتسرّب إليه فتمدّد على الكنبة أمام النار وغفا، كان المطر ما زال يهطل والسحب تفرّغ برقها وصواعقها مع المياه المنسكبة.

***

رأى كأنّ رجلاً بثياب عربيّة قديمة يقترب منه:

-آه يا بني، ظلمك الجميع، ولكنك كنت أقوى منهم بالإصرار على الحق.

-يخيل إليّ أنني أعرفك، رأيت هذا الوجه من قبل.

-أنا سيف اليماني، كنت تقلّب في كتابي؟

-نعم، نعم.

- جئت لأقول لك، لله درّك من شبل قويّ، ثابت مع الحق رغم كل التحديات، اقرأ بعض يومياتي يا بنيّ قد تفيدك، جدّك إبراهيم يفخر بك، وأمك لا تنقطع عن الحديث عن شجاعتك.

رأى كأن سيف اليماني يقوده بيده، ثم يتوقف أمام مهرة بيضاء يسرجها بعض الخدم، ثم ينظر إليه بعينين عميقتين، ويقول له:

-هذه المهرة هديتي لك، إنها سريعة، ووفيّة لفارسها.

رأى نفسه وهو يمتطي صهوة المهرة فتنطلق به بعيداً كالريح، وإذا بها تطير وهي ترف بجناحيها الأبيضين العريضين محلّقة فوق الجبال والأودية.

تستقر فوق سطح ناء عال، يرى مصورين وكاميرات وجمعاً غفيراً، ويقبل رجل في ملابس القضاة يشير إليه:

-هذه المرأة أحضرت أدلّة لا لبس فيها تثبت فيها براءتك.

-الخالة أم هادي؟

-نعم يا بني، لن أقف مكتوفة الأيدي وأنا أراهم يدمّرون بنيانك وثباتك على الحق وشجاعتك في سبيله.

وتقبل زوجته باكية مستعطفة:

-عادل أنا آسفة، الأولاد يريدونك، اعذرني لقد ضغطوا علي.

أخذت تبكي وهي تنكبّ على يديه تقبّلهما طالبة غفرانه، واندفع الأولاد يحيطون به باكين، فتح ذراعيه يستقبلهم بحضنه:

-تعالوا إليّ. اشتقت لكم يا أولادي.

استيقظ على طرقات شديدة على الباب، سمع أصواتاً في الخارج، كانوا مجموعة من الرجال يحاولون فتح الباب بقوة.

كان المطر ما زال يهطل، سمع أصواتهم وميّز كلماتهم.

- ما الذي أغلق بابه، كان بيتاً قديماً خشب أبوابه ونوافذه ينخرها السوس.

-انظر يا هايل كأنني أرى دخاناً يصعد من الموقد.

-ربما لجأ إليه أحد المشرّدين في هذا المطر المنهمر.

-عد إلى طرق الباب، يجب أن يفتحه من في الداخل.

كان الظلام قد عمّ وليس سوى ضوء النار المتقدة في الموقد، أين هي أم هادي؟ لماذا لا يراها ومن هم هؤلاء الناس الذين يأتون في هذه الساعة إلى هذا البيت؟ ولماذا؟ هل هم مشردون؟

هو لا يستطيع إدخالهم قد يلوثون البيت بالوحول، وقد تغضب العجوز منه، ولكنه سمع صوتها خلفه:

-أنت تتردّد في فتح الباب يا دكتور عادل.

-ربما كانوا مجموعة من المشردين، يبحثون على ملجأ لهم من المطر الهاطل.

-وبيتي ليس مفتوحاً لهم.

-تريدين أن تفتحي الباب؟

-نعم، ابتعد قليلاً يا بنيّ، ولا تخف عليّ سأعرف كيف أتحاور معهم.

-ولكني سأكون قريباً منك أساعدك.

-لا تخف عليّ، ابق في مكانك قرب المدفأة.

فتحت الباب واطلّت عليهم:

-ماذا تريدون؟ ابتعدوا من هنا.

-نريد أن نقضي الليل هنا، أرى أنك أشعلت المدفأة، هل هناك أحد سواك هنا؟

وفجأة اعتراهم خوف شديد تحوّل عند بعضهم إلى ذعر حقيقي:

-انظر إليها إنها تزيح نقابها.

-يا إلهي، إنها شبح! ابتعدوا هذا البيت مسكون.

كأنّ شيئاً خارقاً أحدث عندهم هذا الرعب فقد انطلقوا كالإعصار هاربين، أغلقت الباب وعادت إليه وهي تتمتم:

- ذهبوا ولن يعودوا.

-بدوا خائفين منك يا خالة، ماذا فعلت لهم؟

ضحكت: ـ رأوا وجهاً مخيفاً، فابتعدوا. لا تقلق يا بني، لن يعودوا، عرفتهم، إنهم بعض قطّاع الطرق يبدو أنهم ابتعدوا عن مكمنهم، أو المكان الذي يختبئون فيه، وداهمتهم العاصفة، قل لي: نمت جيداً؟

-نعم، ورأيت سيف اليماني في الحلم، كان رجلاً مهيباً.

-إنه جدّي والد أبي، كان فارساً شجاعاً نبيلاً.

-كان فارساً، يقاتل بالسيف، ضد العثمانيين.

-كان مقاتلاً بالطبع، وكان يتمتع بكل أخلاقيات الفرسان، يجب أن تطّلع على يومياته.

-قلّبت فيها قليلاً، بدا لي بأسلوبه الراقي، كأديب متفوق.

-كان شاعراً معروفاً.

-كأني سمعت باسمه من قبل.

-اسمع يا بنيّ، سترتاح في هذا المكان ليومين أو ثلاثة، وبعدها أرافقك إلى المدينة، لتقاتل من أجل كرامتك، وسأساعدك بكل قوتي.

-وأستطيع زيارة قبر أمي؟

-بالطبع، هناك طريق خلفي، يؤدي إلى المقبرة، وهو مرصوف جيداً، لا أوحال أو برك فيه، يمكنك اجتيازه عندما تنوي زيارة القبر.

-ألا يجب أن أزور أهل القرية؟

-لا داعي لذلك، لا بدّ وأن الصحف نشرت التهويشات التي قام بها أعداؤك، فضائح رشاوى، تعلم أن بعض الصحف تنشر ذلك بقصد ترويج أعدادها، أما الآن فسأتركك ترتاح، أصبح جوّ الغرفة الداخلية التي تحتوي المكتبة، دافئاً.

-ألن تنامي هنا يا خالة؟ كيف تتركين بيتك؟ وأين ستلجئين في هذا الوقت؟

-لديّ مكان النوم بين أناسي وأقربائي، لا تقلق عليّ، المهم حاول أن تستفيد من وجودك هنا عن إذنك يا عادل، سأخرج من الباب الخلفي.

-ولكن المطر يهطل بغزارة، والظلمة شديدة.

-أنا معتادة على ذلك لا تقلق، هذا المعطف يقيني البرد والمطر.

-كما تشائين يا خالة.

-اطمئن تماماً، لن يزعجك أحد، البيت دافئ وأمين.

قال في نفسه: "كم هي جريئة وشجاعة؟ يا إلهي! لولا حضورها لكنت أجتر الآلام، وحيداً بائساً."

كان الدفء قد عمّ البيت، دخل إلى المكتبة يعاين مخطوطاتها، وأمسك يوميات سيف اليماني يقرؤها.

"خرجت صباح هذا اليوم أقصد وبعض رفاقي المقاتلين، المكان الذي يحتجز فيه العثمانيون، المشاغبين كما يسمونهم، كنّا ننوي تحريرهم مهما كلفنا ذلك من تضحيات، كنّا قد رسمنا خطة من قبل، ولم نستطع تنفيذها للزيادة التي طرأت على عدد الحرّاس، الذين انتشروا حول السور كالجراد! وسمعت أحد أصدقائي المقربين يقول بصوت رغب مني سماعه.

-وصلهم خبر أننا نعدّ العدّة للهجوم على المعسكر، لذلك زادوا من عدد الحراس.

-ماذا يعني ذلك. ؟

-هناك خائن بيننا!

-وكّل الله يا رجل، كيف يجرؤ أحد من بيننا على الخيانة؟ ستصيبه اللعنة.

-إغراء المال، إغراء النساء، الترهيب!! هناك أبواب كثيرة للخيانة.

رغم أنني تظاهرت بعدم الاكتراث، إلا أنني كنت قلقاً من تلك الكلمات، قابلت كل واحد من جماعتنا على حدة، أحاول أن أستجرّه في الحديث لعلّه يخطئ بشكل ما، فأشك فيه، ولكني لم أفلح في ذلك، كلهم بدوا متحمسين مندفعين للقتال ضد المحتل. وصلنا قرب السور وبدأنا نحفر في النفق، ونحن نتناوب على المراقبة، خوف اكتشافنا، وقبل الفجر، كنّا قد حفرنا عدّة أمتار في نفق تحت أرض السور، وفي اليوم التالي عدنا في المساء لإتمام الحفر ففوجئنا بأن ما حفرناه قد ردم بالكامل، وسمعنا أصواتاً حولنا، ولم نستطع التهيؤ لمواجهة القادمين الذين طوقونا وأخذوا يصرخون:

-ألقوا أسلحتكم أنتم محاصرون.

قلت لرفاقي بصوت خافت:

-لقد خاننا واحد منّا! تهيّؤوا للمقاومة، لن نستسلم.

-سيف، ألا ترى أننا ننقص واحداً الآن؟

-نعم، نعم، يا إلهي نحن (15) رجلاً، أين الخامس عشر؟

قال بحزن: ـ إنه سالم!! أخوك!.

-ماذا تقول؟ سالم؟ سالم يخوننا؟ مستحيل.

- إنه يحب ابنة المختار، وقد حاوره المختار في قبوله تزويجه من ابنته والمختار يتعاون معهم.

-معقول؟ يا إلهي، سالم؟

-إنه غرّ، أغرته الفتاة، انسحب قبل الإطباق علينا.

-سنقاومهم، لن نستسلم!.

بصعوبة بالغة اخترقنا الطوق بعدما استشهد خمسة منّا، وجرح أربعة، كنت مغتاظاً لدرجة القهر من سالم أخي، وقد بحثت عنه طويلاً لينال عقابه أمام المجموعة، فالخيانة جزاؤها الموت، ولكنه اختفى، وعلمت أنه يقيم في دار المختار متحصّناً بحراسة العثمانيين.

***

قلّب عادل الصفحات، وقرأ كيف قتل العثمانيون زوجة سيف وأولاده، وكيف أحرقوا أرضه، وأعلنوا عن مكافأة كبيرة لمن يقبض عليه، ولكنه كان عنيداً صلباً.

استمر يجمع الرجال وشنَّ عليهم هجمات متتالية، انتصر في أغلبها، وأصبح اسمه على كل لسان، أحبّه العامة وصاغوا الأساطير حول شخصيته، وتمكّن ببراعة أن يعدّ العدّة للمعركة الفاصلة التي انتصر فيها على المحتلين وأخرجهم من قريته والقرى التي حولها، وهرب المختار مع أهله وبينهم ابنته وخطيبها سالم، الذي عثر عليه مقتولاً على الطريق المؤدية إلى القرية! ويقال إن المختار أوعز بالخلاص منه، لأنه لم يعد نافعاً لهم.

ظلّ عادل طوال الليل يقرأ عن سيف اليماني، ويطالع بعض قصائده، فشعر بمحبة لهذا الرجل الذي ناضل في سبيل الحق، دون أن تعرف نفسه الهزيمة.

نام متأخراً، وحين استيقظ، كانت العجوز موجودة وقد أعدّت له إفطاراً شهيّاً تبادلا الحديث، ثم استأذنت وذهبت على أن تعود في الليل، ورغب عادل أن يذهب لزيارة قبر أمه، من الطريق الخلفي المرصوف.

لم يستطع فتح الباب، كان قفله صدئاً، واستغرب كيف تتمكّن أم هادي بسهولة من الدخول والخروج منه، ففتح الباب الخارجي بهدوء وتسلّل إلى الطريق الخلفي، حتى لا يثير فضول الناس واتجه نحو قبر أمه.

جلس فترة وهو يفكّر بالتطوّرات التي حدثت له في اليومين الأخيرين، وطفحت الذكريات منه، وهو يتذكّر كلمات أمه ووصاياها له بالثبات على الحق، وأن الإنسان بوعيه وقوة أخلاقه، وصموده أمام التحديات.

سمع سعالاً خلفه، فالتفت ليجد ذلك الكهل الذي قابله أمس، والذي يرغب بشراء أرضهم، وقد سمع أن والد عادل يرغب ببيعها.

-ما تزال هنا؟ لم أرك في الليل في الاجتماع.

-أي اجتماع يا عم؟

-كانوا يجتمعون في بيت المختار لتحديد الطرقات داخل القرية، هناك وفد من بلدية الناحية كان موجوداً، أعتقد أنهم سيقتطعون جزءاً من أرضكم، هه لم تقل لي أين كنت أمس؟

-ولماذا تسأل يا عم؟ كنت في أحد البيوت.

- قلت إنك تتجه إلى بيت (أم هادي) كأنك ترغب بشرائه، إنه بيت مسكون بالأشباح، ويقال إن الجان يتواجدون فيه.

-العجوز تسكنه، وليس هناك من أشباح أو جان.

-العجوز تسكنه؟ ماذا تقول؟

-كانت معي أمس حين مررت قربك، ألا تتذكّر؟

-لم أر أحداً معك يا بني، كنت وحيداً، ثم إنها. .

شعر أن أم هادي أصبحت قربه قالت له هامسة: ـ لا تستمع إليه إنه خَرِف، هيّا يا بنيّ، اقرأ الفاتحة وغادر.

-نعم يا خالة، نعم.

-مع من تتكلم، هه، يبدو أن أخبار القرية لا تصلك، رحمها الله كانت إنسانة طيبة وصادقة.

قالت أم هادي: ـ إنّه يقصد أمك؟ رحمها الله.

-شكراً لك يا عم، عن إذنك، سأتمشى قليلاً.

- لم تقل لي أين نمت أمس؟ يمكنك المجيء إلينا، نحن نخصّص غرفة للضيوف، يمكنك أن تنام فيها، هه، قبل أن أنسى أصحيح ما تقوله الجرائد عنك؟

انتفض مذهولاً وهو يتمتم: ـ "يبدو أنهم بدؤوا هجومهم الصاعق عليّ."

-هه. لهذا أنت تهرب، لا تؤاخذني يا عادل، هذا سيء بحقك، لو كانت والدتك حيّة لغضبت عليك.

شدّته أم هادي: ـ تحرّك يا عادل واتركه، هيّا.

شعر بغصّة تخنقه وهو يجتاز الطريق الخلفي عائداً إلى بيت أم هادي، التي لحقت به، وشجعته على مواصلة المقاومة، وبعد أن أعدّت له الطعام، استأذنته على أن تعود في الليل.

قضى وقته يقلّب بين المخطوطات القديمة، وينهل من معلوماتها القيمة، عن الفلك والطب والفلسفة والأدب، وأتته في الليل لبعض الوقت ثم أكدّت عليه أن يلاقيها غداً عند المقبرة لاصطحابه إلى المدينة.

أخذ يعدّ لمواجهة الأحداث، ورسم الخطط بعد أن قلّبها على مختلف الأوجه، يجب أن يستعمل كل الطرق للوقوف في وجه أولئك الناس الذين اعتدوا عليه وشوّهوا سمعته، وجعلوا زوجته تهجره ومعها الأولاد.

في الصباح، انطلق من البيت المهجور، متسلّلاً إلى الطريق الخلفي ثم المقبرة، حيث رأى العجوز تنتظره ومعها تلك السيارة العتيقة، وسائقها الذي بدا صامتاً ممسوح الوجه، بلا ملامح.

انطلقت به السيارة والعجوز معه وغفا لدقائق، قبل أن يصحو ليجد نفسه في صخب المدينة، والسيارة تتقدّم صوب حيّه في المنطقة الغربية.

فتح الباب، ليفاجئه وجه سعاد الدامع، والأولاد الذين تحلّقوا حوله، حتى أصغرهم.

-أنا آسفة يا عادل هدّدوني، وحتى لا يصيب الأولاد أذى ابتعدت عنك، أعلن أنك مثال الاستقامة والأخلاق والحنان، وستغفر لي، لقد طردني والدي وكل أهلي حين حكيت لهم ما جرى حين حضر ذلك الرجل يهدّدك ويضع أمامك الخيارات، أرجوك اغفر لي يا عادل!.

-لابأس يا سعاد، ليغفر الله لك، آه. نسيت أين الخالة أم هادي؟

-أم هادي؟ صديقة أمك؟ آتتني في بيت أهلي وأسمعتني كلاماً قاسياً لأنني تخلّيت عنك، والدي أكبر فيها هذا الحماس لمساعدتك، هه ماذا تنوي أن تفعل؟ قالت لي أم هادي أنك سترفع دعوى ضد الشركة.

-نعم، وسأوكل أبرع المحامين لإحاطة اللثام عن هذه القضية، لن أهدأ حتى أستردّ حقّي.

رنّ جرس الهاتف، فرفع السماعة، كانت ممرضته على الطرف الآخر.

-دكتور، الناس يزدادون ازدحاماً على العيادة يريدون مواعيد وأنت غير موجود، ماذا أفعل؟

-ماذا تقولين؟

-أتى بعض الناس أمس إلى هنا وحاولوا التشنيع عليك، ولكن المرضى اجتمعوا وطردوهم، الناس يعرفون الحق، يفرّقون بين الصحيح والغلط.

-الحمد لله، غداً سأنهي كل المواعيد، في المساء فقط، لأنني منشغل في النهار.

-ما زالت الساعة تقارب السادسة، ألن تأتي اليوم؟ هناك مرضى حالتهم سيئة.

-حسناً، حسناً أنا قادم.

وضع السماعة قالت سعاد خائفة:

-ماذا تقول؟ قد يضايقونك، وربما هاجمك بعضهم.

-سأعرف كيف أتصرّف، أنا ذاهب إليهم.

خرج من المنزل متجهاً إلى سيارته، وانطلق بها إلى العيادة، وخُيّل إليه أن هناك سيارة قديمة تتبعه، كأنها السيارة التي أقلّته إلى القرية وأعادته منها، إنها أم هادي، تسير خلفه لتحميه، أحسّ بالدموع تترقرق من عينيه، يا لهذه العجوز الرائعة القوية في الحق.

وصل العيادة، واستقبله المرضى بالترحاب، وهم يتسابقون للإعلان عن زيف كلّ ما لفق عنه من تهم، وأن بعضهم يدين له بحياته.

همست له الممرضة:

-أتت عجوز قبل قليل وتكلّمت إليّ عن نبلك وإخلاصك وشرحتْ لهم القضيّة وقد أتت أمس أيضاً، وتكلمتْ مع مرضى آخرين، وتصدّت لبعض من أرسلهم (عاصم بيك) وعاونها المرضى في طردهم.

-يا إلهي! يا أم هادي، ما الذي تفعلينه؟ ومن أين لك هذه القوة وسرعة الحركة، كنت معك أمس في القرية، وقطعت المسافة إلى هنا، ثم عدت من أجل أن تتصدّي لكل ما يفعلونه ضدي، ما أنبلك أيتها العجوز الطيبة؟

هكذا كان يحدّث نفسه وهو يكشف على المرضى، وتلقّى اتصالاً من نقابة الأطباء.

-أنا الدكتورة سهى يا دكتور عادل، قررت النقابة الوقوف معك بكل إمكانياتها، في رفع الدعوى ضد خصومك الذين شهّروا بك وحاولوا تلويث سمعتك.

-شكراً لكم، شكراً لك يا دكتورة سهى.

-النقيب يريد أن يتكلم معك عندما يحضر من اجتماعه، أبلغني أن أتصل بك وأطمئنك أنك لست وحيداً.

شعر عادل بالراحة، وزاد تصميمه على خوض المعركة بقوّة، وحين عودته من العيادة اعترضه شخصان يحملان سلاحاً، ولكن صفارة سيارات الشرطة كانت أسرع منهما، وعرف عادل أن العجوز هي من أبلغت الشرطة.

اعتقل الرجلان وحُقّق معهما، كانا قد تلقيا مبلغاً من المال للاعتداء على الدكتور عادل من شخص مجهول، لم يحك عادل لزوجته سعاد ما جرى له، كانت المسكينة تحاول جهدها إرضاءه وقد كثرت الاتصالات به لتشجيعه وتقوية معنوياته.

رفع أكثر من محامي الدعوى ضد (عاصم بيك) وشركته، وتذكّر عادل حلمه، وقد رأى القاضي يحكم ببراءته وتجريم خصومه، شعر أن كل ما يحقّقه من انتصارات يعود لأمه التي أوصت صديقتها بالوقوف معه.

فشعر بدافع يدفعه لزيارة والدته، فاستقلّ سيارته ومعه سعاد والأطفال وانطلق في اتجاه القرية، قرأ الفاتحة على القبر، ورغب أن يدخل في القرية، ويتجه صوب بيت أم هادي، التي لم يعد يراها في الأيام الأخيرة، وقد توضحت قضيته بجلاء وتأكّد للجميع أن الحكم سيكون في صالحه.

اتجه نحو البيت الذي يحمل له ذكريات يومين من عمره، فوجد الباب الخارجي مغلقاً والعناكب تعشش فوقه، حاول دفعه فسمع سعالاً خلفه.

- كيف حالك يا بنيّ؟. أنا أم أكرم صديقة أمك.

-نعم، نعم أتذكّرك يا أم أكرم الحمد لله أنت بصحة جيدة، أين أم هادي؟ أرى بيتها مغلقاً.

-ومهجور، ويُقال إن الأشباح تعيش داخله، رحمها الله إنها ميتة منذ خمس سنوات، كانت امرأة رائعة طيبة، ويُقال إنها تظهر لبعض الناس وتساعدهم في حل مشاكلهم، إنها أشبه بالقدّيسات.

اقشعرّ بدنه وهو يسمع كلامها:

- ماذا تقولين؟ رأيتها مراراً!! ونمتُ هنا يومين متتالين عندما هطلت الأمطار قبل أيام، كانت أمطاراً غزيرة مصحوبة بالبرق والصواعق والرياح العاتية.

-ماذا تقول يا بنيّ، لم تنزل نقطة مطر واحدة هنا منذ ثلاثة أشهر؟ وهذا البيت مهجور يمكنك النظر إليه من النوافذ لترى الحشرات والزواحف

تعشش فيه، رحمها الله، كانت امرأة رائعة، كانت أعزّ صديقاتي هي ووالدتك.

نظر من النوافذ المشققة، وقلبه ينبض بعنف، وأم أكرم تدعوه وزوجته لزيارتها في بيت ولدها أكرم مدير مدرسة القرية.

كان مذهولاً مما سمعه! أمعقول أن يحدث له ذلك؟ ليت أم هادي تظهر له من جديد وتفسّر له هذا اللغز.

شعرت سعاد بما يتعرّض له من مفاجأة، فشدّت يده للعودة إلى السيارة والانطلاق نحو المدينة من جديد.

طواحين الموت

ـ 1 ـ

تمرّ الأيام قاسية حزينة، وتوحي الأيام المقبلة بالبؤس والشقاء.

ما الذي جرى للناس؟ لماذا أصابهم كل هذا التغيّر؟ لماذا يغدر الأخ بأخيه وينهي العلاقة الإنسانيّة الحميمية بينهما من أجل حفنة من مال؟ أو من أجل متعة زائلة. لماذا نفتقد سحر الأمومة والأبوة، ونعيش الضنك والعذاب ضمن أفق لا أثر فيه لنعمة الخير، هل نستطيع أن نتنبأ بما يمكن أن يحدث للبشرية الآن، ونحن نشهد القتل والتدمير في كل بقاع العالم النامي، البعيد عن روح التقنيّة الزائفة الحاقدة؟

تمضي الأيام وتجهض أحلامنا، وآمالنا، والسراب البغيض يأكل أمنياتنا وتطلعاتنا؟ آه يا إلهي، كم يبدو الواقع بغيضاً، والمستقبل مشوشاً فوضوياً ليس فيه سوى الظلام.

كان ممدّداً على السرير وهو يفكّر بما حدث، وقد قتلت سيارة زوجته وطفليه وهي منطلقة بسرعة البرق هكذا، دون أن يقبض على سائقها، أو يُحال للسؤال عن سبب تلك السرعة الزائدة في منطقة مزدحمة السكان.

أخبروه بالحادثة وهو في صحيفته، فشعر أنه سيسقط أرضاً لهول الفاجعة وأتى سريعاً ليرى زوجته في منظر لن ينساه طيلة حياته لبشاعته، وقد اندلقت أحشاؤها، وهي تضم الطفلة الرضيعة التي شقّت الصدمة رأسها،

أما الطفل الآخر فكان يمدُّ يده نحوها، كان يستجير بها من موت محتّم. كانت نفسه تخضع لاضطراب ومعدته منقبضة والإحساس بالإقياء يراوده، حين وضعت الشرطة الملاءات البيضاء فوق الجثث الثلاث وقيّدت الجريمة ضدّ مجهول. وعادل تسيطر عليه فكرة البحث عنه، رغم عدم توافر أية معلومات عنه. كما جاء في تقارير الشرطة. إنها سيارة من نوع مرسيدس، مرّت مسرعة وجرفت الزوجة والطفلين، دون أن يكتب رقمها أحد. وهكذا ضاع أثر القاتل الأرعن، الذي أنهى بضربة واحدة أسرة بكاملها، حاول أصدقاء عادل التخفيف عنه، دون نتيجة، فلقد كانت الفاجعة كبيرة لا تُحتمل.

وهو يستعيد أحداث الأمس والقهر يضغط على صدره، كان يتمدّد على السرير حزيناً. وقد حاولت أمه التي جاءت من القرية أن تهدّئ من روعه، دون نتيجة. حتى وهو يستقبل أفواج المعزّين كان ساهم النظرات لا يشعر بما حوله، كأنه لا يرى أحداً، وهو في شروده سمع فجأة قرعاً على الباب. نظر إلى ساعته كانت الساعة تزيد عن الثانية بعد منتصف الليل. غريب من الذي يأتي في مثل هذه الساعة إليه. ؟

سمع صوت والدته تسعل:

- سأفتح أنا الباب يا بنيّ.
- لا داعي يا أمّاه، الوقت متأخّر، لماذا أزعجت نفسك، كنت نائمة؟
- وكيف أنام وأنا أراك تتقطّع أمامي. لا يا بني، أنا مثلك لا أنام. وقد فُجعت بحفيديّ، وزوجتك التي كنت أحبها كابنتي.
- عودي يا أمي إلى فراشك. سأرى مَنْ بالباب.

رأى رجلاً ملتحفاً بشملة أزاحها عن وجهه وهو يقول:

- أنا آسف. إنها ساعة متأخرة. ولكني كنت مضطراً يجب أن أراك يا أستاذ عادل. لأمر شديد الأهمية. حتى إنني لا أستطيع تأجيله للصباح. أنا آسف.

- تفضل. لابأس.

- اسمي فهد. أنا أسكن في الحارة نفسها التي حصلت فيها الحادثة. أي أننا أبناء حارة واحدة.

- تفضل أرجوك.

جلسا في الصالة سأله عادل:

- أتعرف شيئاً عن الحادثة؟

- نعم. ولهذا جئت، أنا آسف.

- لابأس يا أخ فهد. عملت جيداً بمجيئك.

- في تقارير الشرطة رقم السيارة مجهول والسائق مجهول بالطبع؟

- نعم.

- مع الأسف. غريمك ليس سهلاً، إنه أحد أبناء كبار المتسلّطين في البلد. كلمته نافذة على الجميع.

- إلى هذه الدرجة؟ أرجوك هل تعرفه. ؟

- مع الأسف أنا لا أعرفه. ولكنني تمكّنت من قراءة رقم السيارة. وأصدقك القول أنني كنت خائفاً لذلك لم أدل بإفادتي للشرطة. لأنني حسبتها، فحين سيعرفني، ويعرف أنني تحدثت عن رقم السيارة التي يملكها لن يرحمني أبداً.

- وماذا باستطاعته أن يفعل؟

- لديه سلطة قوية، يستطيع بها أن يخترق القانون ويفعل ما يشاء دون أن يحاسبه أحد. على كل حال تفضّل يا أستاذ عادل، ها هو المظروف الذي يحوي رقم السيارة. واعذرني أنا لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه ابن رجل له سلطة قوية في البلد.

- ولماذا جئت في مثل هذا الوقت؟

- شعرت باندفاع لإخبارك. اندفاع فرضه عليّ واجبي في قول الحقيقة وأنت جاري وقد رأيت ما حدث من عمل شنيع مرعب. ما جرى كان شديد القسوة.

– رأيت ما حدث بالتفصيل؟ أرجوك حدثني. لم أسمع سوى فتات من أحاديث غير مترابطة.

– حسناً يا أستاذ عادل. كانت زوجتك تمسك بيد الطفلين وهي على رصيف ذلك الشارع الضيّق، نظرت نحو اليمين ثم نحو اليسار ولمّا تأكدّت من خلّو الطريق، أمسكت الولدين لتجتاز الشارع، وحالما وصلت إلى منتصفه. أتت تلك السيارة. توقف السائق في منتصف الطريق. لم أتبين ملامحه جيداً. تكلم مع زوجتك كلاماً أغضبها ويبدو أنها أنّبته فعاد إلى الوراء قليلاً وتابعت زوجتك مسيرها مع الولدين وقد اعتقدت أنه ذهب. ولكنه عاد بسرعة كبيرة وصدمها مع الولدين قبل أن تصل الرصيف المقابل.

– يا إلهي، إنه قتل متعمّد إذن. ألم ترَ شكله؟

– ليس جيداً. سيارته كانت مكتظّة بالستائر المتداخلة. أنا آسف.

– شكراً لك فقد أرحتني، كنت أعتقده سائقاً أرعنَ. ولكنه كان قاتلاً عن قصد. إنها جريمة.

– قد يفيدك الرقم. ولكن أتمنى أن لا تذكر اسمي، أنا رجل لديّ أطفال كثيرون وأعيل أمي وأبي وأخواتي العوانس.

– لا تقلق من هذه الناحية.

– وأوصيك بالحذر الشديد، أولئك الناس ليسوا بسطاء. إنهم مخيفون. وشرسون ولا يرحمون من يجابههم.

– اللّه معي يا أخ فهد، لست خائفاً ولن أخاف في الحق.

– وفقك اللّه. وأتمنى أن تحقق أهدافك.

نهض متجهاً نحو الباب قال فهد معتذراً:

– لم تشرب شيئاً؟

– الوقت متأخر. يا أستاذ عادل. تصبح على خير.

– وأنت بخير شكراً لك.

أغلق الباب، رأى أمه أمامه تبكي:

- معقول يا بني، قتلهم عن قصد، قاتله الله.
- سمعت الحديث؟
- بالطبع. كنت واثقة أن من يأتي في هذه الساعة، لا بدّ وأن لديه سبباً قاهراً لذلك وهذا ما حاولت معرفته. ولم أتوقّع أن يروي شاهد عيان هذه التفاصيل المذهلة.
- فعلاً مذهلة. وسأصل إلى المجرم، وسترين يا أمي، ولن أرحمه.
- وفقك الله. حاول أن تنام قليلاً اقترب الفجر على البزوغ.
- سأحاول يا أمّاه تصبحين على خير.

ـ 2 ـ

لم يستطع عادل النوم، وقد أزعجه كثيراً ما حدث، وتوقّع أن تكون هناك معركة شديدة تنتظره.

وقبل الفجر بقليل، أعدَّ فنجاناً من القهوة، ثم ارتدى ثيابه وتهيأ للخروج. وقد صمّم أن يبحث عن صاحب السيارة مهما كلّفه ذلك من جهد.

وهو يتجه لفتح الباب سمع سعال أمه خلفه، فالتفت ليجدها تنظر إليه بعينين حانيتين وهي تهزُّ رأسها.

– انتبه لنفسك يا بنيّ. ليست معركة سهلة. حاول أن تتعامل معهم بدهاء. لا تنفعل قد يصطادونك من انفعالاتك وغضبك.

– لا تقلقي يا أمّاه. أعرف مع من أتعامل. ولن أدع الحذر جانباً مهما كانت الظروف.

– وفقك الله يا عادل. حاول أن تعود على الغداء، أو خابرني على الهاتف حتى أطمئن.

– إن شاء الله يا أمي.

فكّرت بحزن بعدما أطبق الباب خلفه:

((بعد غد يبدأ العام الجديد. وهذا البيت خالٍ من الأحباء. كم كان حفيدي طارق الصغير يفرح بالاحتفالات في مثل هذه المناسبات، سيأتي عام 2025 وطارق ليس معي هو وأخته وأمه. يا إلهي كم ستكون الحياة قاسية على عادل وهو يتجرّع الغصّة وحيداً))؟

***

رغم أن عادل يملك خطاً (للإنترنيت) في منزله، فلم يرغب أن يبحث في الشبكة عن معلومات يرغبها وهو في المنزل. لذلك اتجه فور خروجه إلى المركز الرئيسي للشبكة الذي يقع في مركز المدينة، حيث بدأ ببراعة يحاول البحث عن صاحب رقم السيارة الذي أعطاه إياه الرجل الذي زاره في الليل.

توقع أن تكون السيارة المرسيدس موديل (2024)، وأدخل ذلك في بحثه عن الرقم المطابق فوجد عدّة احتمالات، سار عبر هذه الاحتمالات واحداً واحداً، حتى توصل إلى مجموعة من الأسماء لها الرقم نفسه، ولكن بأنواع مختلفة من المرسيدس موديل (2024). تمنّى لو سأل زائر الليل عن شكل السيارة، التي دهست أسرته. فقد يستطيع من هذا الشكل الوصول إلى صاحبها. وأخيراً قرّر أن يستخرج صورها وأشكالها المجسّمة ويطبعها ويحتفظ بها، فقد يستطيع عن طريق السؤال معرفة السيارة الفعلية التي سبّبت الحادثة.

بعد أن استخرج الصور المفصّلة، خرج من المركز الرئيسي للشبكة. متجهاً إلى صحيفته وقد شعر أنه يقترب شيئاً فشيئاً من القاتل، وأنه لن يطول الوقت حتى يطبق على عنقه. استقلّ (المترو) وهو شارد الذهن، وأخرج الأسماء الخمسة لأصحاب السيارات المشتبه بها.

كلها أسماء معروفة لعائلات لها سطوة في البلد، ولكن ترى من الذي قام بالجريمة عن عمد وسبق إصرار من بين هؤلاء الأسماء؟. شعر بيد تربت على كتفه والمترو يتحرّك بسرعة غريبة.

كانت عجوز سمحة الوجه تنظر إليه بحنان:

- كيف حالك يا بني؟ حزنت كثيراً لمصابك.
- الخالة (نعمت)؟ أهلاً بك يا خالة. شكراً لاهتمامك.
- اصبر يا بني. لا شكّ أن المصيبة كبيرة، ولكن لا رادّ لقضاء الله.
- منذ زمن طويل لم أرك، كنتِ تأتين لزيارتنا كثيراً.

– معك حق. ولكنّ وضعنا الجديد كما تعرف، منعني من واجبات كثيرة كنت أقوم بها من قبل.

– آسف يا خالة؟ ربما كنت مقصّراً معكِ. ولكنّ الزمن يبعدنا كثيراً عن أحبائنا ونحن نصارع متاعب الحياة المستمرة. اعذريني لم أسمع شيئاً عمّا جرى لكم.

– لابأس يا بنيّ، لا لوم عليك. ربما لا تعرف أن ابني وزوجته قد قُتلا بحادثة سيارة وأنا أربيّ أطفاله الآن. إنهم ثلاثة صبيان وبنت واحدة.

– حادثة سيارة؟ متى.

– قبل عامين. سائق أرعن حاول مغازلة زوجة ابني، وكانت تنتظر زوجها. ولّما أتى ابني وأنّبه، ابتعد بسيارته، وهدّأ ابني زوجته بعدما اعتقد أنه ذهب. كانا يقطعان الشارع في الطريق إلى سيارتهما المركونة، حين عاد ذلك الشاب الحاقد مسرعاً بسيارته الفارهة وصدمهم بوحشية شديدة فألقاهما مضرّجين بدمائهما.

– يا إلهي، تقريباً نفس ما حصل لي. ولم تعرفي السيارة ولا صاحبها؟

– خاف الناس من الإدلاء بأقوالهم فأنكروا أنهم يعرفون شيئاً. وقيدت الحادثة ضد مجهول.

– معقول، ولم تحاولي معرفة القاتل يا خالتي؟

– لم يكن لدي وقت يا بنيّ، وقد انشغلت بالأطفال، والعمل لأجل الإنفاق عليهم. أنا أعمل الآن مربيّة في أحد القصور الفارهة. لأحد أكابر البلد. وليس العمل سهلاً وأنتَ تكتشف نذالة أولئك الناس وحقارتهم وازدراءهم لمن هم دونهم. بل وحقدهم على الفقراء البائسين ووحشيتهم في التعامل معهم.

– مسكينة يا خالة. وضعك ليس سهلاً. أما زلت تقيمين في المكان نفسه؟

– نعم. وأنفق وقتاً طويلاً للالتحاق بعملي. لولا شهادتي العالية في التربية لما عثرت على عمل. هذا رقم هاتفي إن رغبت الاتصال بي، أعطِه لوالدتك. وحاول الاتصال بي.

– سأفعل يا خالة (نعمت).

كان مذهولاً وهو يتابعها تغيب في المحطة بعد أن توقف المترو.

كأنه مسلسل للقتل. لم تكن الحادثة التي أودت بأسرته استثنائية، ربما كانت واحدة من مئات الحوادث، معقول؟

***

وصل عادل إلى صحيفته. وكتب زاوية عن الجرائم المقيّدة ضد مجهول، متسائلاً عن أولئك المجهولين الذين لا يطالهم القانون، والذين يتّموا وشرّدوا الأطفال والنساء والأسر بكاملها. وحين دفع زاويته لرئيس التحرير عن طريق جهاز الحاسوب خاصته. سمع جهاز الهاتف يرن قربه.

– ألو. نعم. أنا عادل. من المتكلم؟

– أنت تندفع كثيراً في محاولاتك يا عادل. نحن نحذرك.

– من المتكلم؟ ماذا تقصد؟ أية محاولات أنا لم أفهم؟

– لا تظن نفسك ذكيّاً بما تفعله. نحن نتابعك في كل خطواتك، انس موضوع الحادثة. قبل أن ندمرك.

– حادثة أسرتي؟ إذن أنتم من تسبّبوا فيها؟

لم يتمكن جهاز هاتفه من كشف رقم من يتكلم، يبدو أنه مربوط بشيفرة خاصة.

وأكمل الرجل بقوة:

– نحن فوق القانون. وسنحاسبك حساباً عسيراً إن تابعت نشاطاتك. هه. انتظر. أنا أقرأ زاويتك على الإنترنيت الآن، في الصحيفة التي ستصدر غداً. هه؟ نعم نحن المجهولون الذين لا يطالهم القانون. ولن تصل إليهم أنت لأنك ستموت يا عادل. بزاويتك حفرت قبرك.

تردّدت ضحكة الرجل قبل أن يغلق السماعة، كان عادل مدهوشاً قلقاً: "معقول؟ كيف وصلتهم الزاوية بهذه السرعة؟ سأعمل دون توقف قبل أن ينفذوا تهديدهم".

- 3 -

خرج عادل من الصحيفة، وهو يشعر أن أشخاصاً يراقبونه. مشى في شوارع وطرقات مغيّراً اتجاهه، متوقفاً أحياناً وراكضاً أحياناً أخرى. وقد تأكّد أن تضليل من يتبعونه سيجعله حراً في اتخاذ قرارات سريعة قد تكشف أولئك الناس. وربما عقابهم ولكنه كان بحاجة لعون من أحد يتّكئ عليه. ولم يدرِ كيف تذكّر ذلك الكهل الضخم، الذي يعيش كالمشرّد في أحد الأقبية الأثرية قرب بقايا المدينة القديمة ولكنه كان عليه أن يتأكد أنه نجح في الانفلات من مطارديه. وهكذا قضى وقتاً يدور ويلف ويصعد في حافلات عامة، وفي سيارات.

حتى المترو انتقل فيه عدّة مرات وأخيراً بعد نحو ساعتين جلس في مكان مهجور بعيداً عن الأعين كما كان متأكداً. وبعد نحو ربع ساعة. اتجه صوب أحد دكاكين الألبسة البالية ليشتري ثياباً عتيقة تغيّر شيئاً من مظهره زيادة في الحيطة.

ثم اتجه نحو ذلك الكهل في قبوه القديم. طرق طرقات خاصة. وسرعان ما فتح الباب، ليرى صبية جميلة في عقدها الثالث:

- أهلاً بك. تفضل.
- العم فارس هنا؟
- نعم. تفضل.

استقبله الكهل بالأحضان، وقد أظهر سروره بلقياه:

- أنت؟ غير معقول؟ وكيف عنَّ لك أن تزورنا بعد كل هذه المدّة الطويلة؟
- مصائب لا تخطر على البال يا عم فارس.
- تعال اجلس. أنا في شوق لسماع أخبارك. أية مصائب تتحدّث عنّها؟

- لابأس ستعرف كل شيء. لم تعرّفني بالفتاة؟

- أنا غادة. فارس هو والدي.

- معقول؟ أنت غادة؟ قلت لي أنك فقدتها.

- هكذا كنت أعتقد. ولكن يبدو أن رحيلها مع أمها بعيداً لم يجعلها تنساني حتى أمها كانت تشجعها على أن تتذكّرني دائماً وقد فجعت بالرجل الذي تركتني لأجله وقد وجدته تافهاً رخيصاً لا يهتم سوى بنزواته.

- ومتى عادت غادة؟

قالت غادة:

- منذ أشهر أعيش مع والدي. أنا أعمل في مديرية الآثار القريبة منا هنا. درست ماجستير في الآثار.

- تعال حدثني عن مصائبك كما سمّيتها هيّا.

كان فارس أحد الرجال القلائل الذين بقوا على صلابتهم ومبادئهم، في عصر شهد تغيرات مخيفة على الصعيد الإنساني. كان قوياً لا يضاهي قوته أحد. وكان مشهوراً بقوته مع أعدائه، الذين كانوا يخافونه.

ورغم الكمائن العديدة التي نصبت له، كان ينجو منها بأعجوبة. وقد حارب مع أبطال المقاومة في شبابه، ثمّ حارب ورفاقه قاطعي الرقاب وحملة البلطات والسواطير، الذين اجتاحوا البلد ودمّروها وقسّموها ودمّروا تراثها وذاكرتها، وأرعبوا الغرباء بجبروتهم. حتى إنهم كانوا يسمّونهم طواحين الموت. وحين سمع فارس حديث عادل، أصابه الحزن.

- أمعقول يا عادل؟ وهم يلاحقونك رغم أن مجلس عزائك بأسرتك لم ينتهِ؟

- نعم يا عم فارس، هذا ما حدث. ثلاث ساعات وأنا أحاول تضليلهم وأرجو أن أكون نجحت في ذلك. معركتي شديدة الخطورة. لا أستطيع خوضها وحدي.

- وأنا لن أتخلّى عن مساعدتك، أعطني المعلومات التي وصلت إليها.

- كنت سأعرج على فهد أستفسر منه عن السيارة المشابهة لسيارة القاتل بين السيارات الخمس.

- قلت فهد؟

- نعم. لماذا؟

- انظر أنا أتابع على الإنترنيت خبراً عن رجل اسمه فهد. وجد مقتولاً في الشارع. انظر هذه هي صورته.

تفحّص الصورة بذهول:

- يا إلهي، إنه ذلك المسكين الذي تسلّل في الليل إليّ ليخبرني عن السيارة التي دهست زوجتي والطفلين ويعطيني رقمها. كيف وصلوا إليه وعرفوا أنه أفشى الرقم.

هزَّ فارس رأسه:

- لا تبدو المعركة سهلة معهم.

تنهّد بحرقة:

- كم أنا حزين على هذا الرجل المسكين، إنه يعيل أسرة بكاملها. عدد أفرادها ليس قليلاً.

نادى فارس ابنته:

- انضمي إلينا يا غادة أرجوك. نحتاج لمشورتك. إنها شديدة الذكاء قد تعثر لنا على مخرج يا عادل. أنا أثق بها جيداً.

وانضمّت إليهما:

- حسناً يا ابنتي سأعيد لك القصة وهوامشها. سندرسها معاً.

***

ارتدت غادة أجمل ثيابها وأخذت تتسكّع في الحيّ الذي يسكنه عادل، وفارس يجلس على أحد الأرصفة قريباً منها يستند على عصاه الضخمة، وعيناه تراقبان المكان بحذر شديد.

وكان عادل بعيداً عن المكان كما طلب منه فارس، وقد غيّر من شكله حتى لا يعرفه أحد.

تسكّعت غادة نحو نصف ساعة قبل أن تقبل سيارة مرسيدس يقودها أحد الشبان. اقترب بهدوء منها.

- أتنتظرين أحداً أيتها الجميلة؟
- ابتعد. ابتعد.
- لماذا؟ أنا ممتاز، قد أصلح لكِ جيداً.
- قلت لك ابتعد. قبل أن يأتي.
- من هو الذي قد يأتي؟ عشيقك؟ صدقيني أنا أفضل منه. جربيني.
- ابتعد من هنا قبل أن أصرخ أيها الوغد.
- حسناً كما تريدين، أنتِ تجنين على نفسك.

ابتعد بسيارته عنها ثم التفّ واتجه نحوها بسرعة صارخة:

- انتبهي يا غادة.
- لا تخف يا أبي.

تفادت السيارة ببراعة ولكن فارس انقضَّ عليه بعصاه:

- حان دورك أيها الوغد.

فوجئ الناس الذين كانوا يراقبون السيارة والفتاة، وقد ابتعدت السيارة قليلاً قبل أن تعود لتجرف الفتاة في طريقها، بكهل ضخم يعترض طريقها من الجانب وينزل بعصاه الضخمة بضربة هائلة فوقها فيحطمها لتنقلب ودواليبها تدور بسرعة فائقة.

لم يكتفِ الكهل الضخم بذلك، بل رفعها بقوة من جانبها ثم تركها تسقط وهو يرى الشاب يتخبّط بدمه. وخلال لحظات كانت الشرطة تطوّق المنطقة، ولكن الكهل والفتاة اختفيا كأن الأرض انشقّت وابتلعتهما.

لم ينجح إسعاف الشاب، الذي وجدته الشرطة وقد كُسرت رقبته، وجحظت عيناه بذعر.

شهد الناس برؤيتهم لعملاق ضخم، يرفع السيارة ويحطّمها ويقتل سائقها، وأكد الجميع رغم تهديد الشرطة أن أحداً لم يره من قبل.

كيف أتى؟ وكيف اختفى؟ هذا ما أدهش الناس. وفي بيت عادل رنَّ جهاز الهاتف.

رفعت والدته السماعة بقلق فسمعت صوته:

– أنا بخير يا أمي، لا تقلقي. لن أعود اليوم، سأخابرك غداً.

تمتمت:

– أعانك الله يا بني.

وما إن وضعت السماعة حتى سمعت طرقاً على الباب، فتحته فرأت عدداً من رجال الشرطة.

– أين السيد عادل؟

– لا أدري يا بني، لم يعد بعد. ماذا تريدون منه؟

– نحتاجه في القسم.

– في القسم؟ لماذا؟

– هناك شكوى مقدمة ضده.

– لماذا لا تسألون عنه في مكان عمله؟ لم يعد بعد إلى هنا.

– ليس موجوداً هناك.

تنهّدت:

– لا أعلم أين هو، لم يخبرني. عادل ليس صغيراً حتى يحكي لي عن تحركاته.

– إن خابرك أو عرفت مكانه، خابرينا على هذا الرقم.

رآها تأخذ البطاقة متردّدة فأكمل:

– من أجل صالحه، يجب أن يراجعنا في القسم. الأمر ضروري.

– إن أتى أو خابرني سأقول له ما قلتماه لي.

همس لها:

– لا داعي للقلق يا خالة. أظن أنهم يحتاجونه في شهادة.

وأكمل:

– شهادة في حادث وقع أمامه.

– حسناً. فهمت يا بني. مع السلامة.

خرجوا وتركوها تجترُّ قلقها وخوفها.

- 4 -

أحدث العمل الذي قام به فارس بلبلة كبيرة عند أهل الشاب، وأصدقائهم المتنفذين واستنفروا أجهزة أمنهم للبحث عن ذلك العملاق الضخم كما وصفه الأهالي.

أما فارس وغادة فقد تمكّنا من التسلّل داخل سرداب قديم، إلى ذلك البناء الأثري المهمل في طرف المدينة حيث لا يتوقع أحد أن يعيش هناك أحد.

كان المكان محاطاً بالمقابر والأعمدة والفجوات التي تستوطنها الوحوش أحياناً. وتكثر الأشواك والنباتات البرية حولها.

لم يعرف عادل كيف يتصرّف وهو يرى فارساً يحطّم سيارة ذلك الشاب ويدق عنقه ثم يختفي وغادة، ولكنه كان متأكداً أن تنكّره كان متقناً، فلم يعرفه أحد في حيّه.

اتجه نحو نفق (المترو) وفي نيته الوصول إلى بيت فارس الذي يعرفه، وبعد وقت طويل أنفقه في طرقات متعرّجة، وصل بيت فارس فلم يجد أحداً.

فخرج يتسكّع في المنطقة المنعزلة وقد بدأ الظلام يخيّم، وفجأة رأى نفسه محاطاً بمجموعة من قطّاع الطرق.

- أخرج ما في جيبك من نقود وبطاقات اعتماد. بسرعة قبل أن نغمد سكاكيننا في صدرك.

- هيا بسرعة لا وقت لدينا.

قال بخوف:

- لا أملك نقوداً، أعتمد على بطاقات الاشتراك في وسائل النقل والمطاعم.

- أعطني كل ما في جيبك بسرعة.
- هه. يبدو قوياً ما رأيكم لو أخذناه معنا، سنبيع أعضاءه لبنوك الأعضاء البديلة. سيدفعون مبالغ مجزية.
- فكرة جيدة. قيّدوه بسرعة.

حاول مقاومتهم:

- ماذا تفعلون؟ ابتعدوا عني.

وإذا بصوتٍ كالرعد القاصف:

- ابتعدوا عنه أيها الأنذال.

تراجعوا:

- إنه العملاق صاحب اليد الحديدية.
- لنجتمع عليه ونتخلّص منه. لن يستطيع مقاومتنا ونحن بهذا العدد.
- حاصروه جيداً.

قال فارس محذّراً:

- اثبت في مكانك يا عادل ولا تخف.
- كان من اللازم إحضار البندقية. تكفيه طلقة واحدة فقط.
- لدي مسدس مجهّز بكاتم صوت. سنستخدمه في الوقت المناسب. سنبيع الاثنين إلى بنوك الأعضاء البديلة. وسيكون الثمن مضاعفاً. حاصروهما بسرعة. واستخدموا المخدّر.

قهقه فارس:

- لن تستطيعوا فعل شيء سأكسر رقابكم.
- بسرعة حاصروه.

غمغم الأول مرعوباً:

- آه. إنه يكسر رقبتي. أرجوك لا تفعل ذلك. آه.

وقال الثاني بذعر:

- ابتعد عني. لا. لا.

قبض على كبيرهم:

- أنت رأس الحيّة. مُرهم بالابتعاد عنّا. وليرشّوا أنفسهم بالمخدّر.
- نفّذوا ما يقوله. قبل أن يقتلني.
- سنفعل يا سيدي.

رشّوا المخدّر كما طلب فارس:

- سنتخدّر وننام. ما الذي ستفعله بنا بعد ذلك؟

ضغط على رقبة كبيرهم الذي صرخ:

- نفّذوا ما يقوله. بسرعة. آه. اتركني أرجوك.

ضربه على رأسه:

- حسناً. اذهب إليهم ونم معهم. هيا يا عادل لنبتعد بسرعة.
- هل ستتركهم هكذا.

وانطلقت أصوات صفارات الشرطة:

- ألا تسمع أنهم قادمون إلينا. أحد هؤلاء يعمل مع الأمن. تعال. ادخل هنا.
- في هذا المكان الضيّق؟
- لا تتأخر ليس هناك وقت.

ووجد عادل نفسه في دهليز ضيّق طويل فيه إنارة كهربائية خفيفة. وبعد دقائق رأى نفسه في مكان واسع أشبه بصالة، حيث جلست غادة على مقعد قصير. وهي تنظر إليه وإلى والدها.

كان المكان مرتباً بطريقة مريحة. أشار إليه فارس أن يستريح.

- تأخرت عن الحضور، قلقنا عليك.

قالت غادة:

- كنا نراقب بيتنا القديم، عسى أن نراك تحوم حوله. ولكنك جئت متأخراً.

– لماذا تركتما البيت؟

أجاب فارس:

– احتياط فقط، نحن متأكدان أن لا أحد قد يخطر بباله أن أكون وغادة من صنع الحدث هناك.

تابعت غادة:

– راقبت الإنترنيت، الدنيا مقلوبة. البعض يعتقد أننا من الجنّ، والبعض يعتقد أيضاً أننا مخلوقات من كوكب آخر. وهذا جيّد.

– لو لم أصل في الوقت المناسب، كنت الآن على وشك أن تُباع لأحد بنوك الأعضاء. هؤلاء الناس الذين هاجموك يقيمون في مكان آخر، ولكنهم يبدّلون أماكن هجماتهم باستمرار. صورهم عند الشرطة، وسيقبض عليهم ويحاكمون. لولا ذلك لكسرت رقابهم واحداً واحداً.

– وماذا سنفعل الآن؟

– سنقوم بعملية أخرى في مكان آخر. غادة فتاة جميلة وتغري بالتحرّش بها.

– ستعيد السيناريو نفسه؟

– بطريقة مختلفة. يجب أن لا نهدأ في عقاب أولئك الذين قتلوا الكثير من الأبرياء بتحرّشاتهم الوقحة. اتركني وغادة نقوم بهذا العمل وابقَ بعيداً عنّا.

قالت غادة:

– اتصلتُ بوالدتك قبل قليل اسأل عنك، قالت إن الشرطة تريدك لأمر هام.

– يبدو أنهم يشكّون بي؟

– لا تقلق من هذه الناحية.

– ولكنهم كانوا يلاحقونني، وأنذرني أحدهم بالهاتف.

قال فارس:

– ليسوا من الشرطة، اذهب لقسم الشرطة ولا تخف، لي صديق هناك يعرفك جيداً سيحميك إن كانت هناك شكوى من المتنفّذين ضدك.

– حسناً.

– غادة تجهزّ لك الطعام. وستقودك إلى مكان قريب من محطّة المترو بوساطة السراديب المنتشرة هنا.

– وأنت؟

– أجهز لعمليتي التالية. سأفاجئهم من جديد.

فكر عادل:

– ((ليتني تذكرتك من قبل يا فارس. أيها الرجل الشهم))

وأحضرت له صينية الطعام:

– تفضل ، إنه طعام خفيف يوفي بالغرض.

– شكراً لكِ.

– أسرع قليلاً، يجب أن تصل قسم شرطة حيّكم قبل التاسعة.

– حسناً وكيف سأتصل بكما من جديد؟

– لا تقلق، ستكون هناك وسيلة ما أصل بها إليك.

قادته غادة في سرداب طويل، صعد في نهايته عدّة درجات فوجد نفسه خلف بناء يطلُّ على محطة المترو، شدّت غادة على أصابعه مودّعة ثم عادت من حيث أتت.

أصلح عادل نفسه، وأزال تنكّره قبل أن يصعد في المترو نحو حيّه القديم حيث وصل قسم الشرطة قبل التاسعة.

كان ضابط القسم يريده لإكمال محضر وفاة زوجته وطفليه، ووجد نشرة حديثة حول حادثة السيارة المحطّمة، وقد قيدت ضد مجهول أيضاً.

أظهر له الضابط احتراماً كبيراً، وحين تعرّض لزواياه في الصحيفة، أثنى على الزاوية الأخيرة التي كتبها حول الجرائم المقيّدة ضد مجهول.

- مع الأسف يا أستاذ عادل، لا نملك الوثائق اللازمة لمعرفة الجاني بهذه الجرائم، حتى الشهود لا نرى أحداً يشهد على سير الجريمة.
- ذلك لأن الناس يخافون على حيواتهم، لو شهدوا على ما حدث فعلاً.
- خائفون من الجناة؟
- لأن أولئك الجناة لهم أيادٍ طويلة في كل أجهزة الدولة.
- ما تعلمناه أن لا شيء فوق القانون.
- إلاّ هؤلاء أيها الضابط. إنهم قوّة مخيفة متسلّطة.
- مع الأسف تركنا المجال للإشاعات حول الجنّ والعفاريت وكائنات العوالم الأخرى في إعادة العدالة إلى الأرض. أقرأتَ عن حادثة السيارة التي حطمها عملاق وقتل سائقها الشاب؟
- نعم قرأت شيئاً عن ذلك؟
- الحقيقة أن الشاب حاول معاكسة صبيّة، ولمّا رفضته حاول دهسها، فقام رجل فحطّم السيارة وقتل الشاب. هذا ما رواه الناس وأعتقد أنها الحقيقة. ولكن من كان ذلك الرجل القوي؟ ذلك الرجل الذي استطاع أن يقوم بذلك العمل الصعب.
- تبحثون عنه؟
- لم تردنا أوامر بهذا الخصوص وأعتقد أن هناك أجهزة أخرى تبحث عنه لا دخل لنا بها.

فكّر محتاراً:

- ((هل أبلغهم عن الذين يلاحقونني؟ وعن ذلك الصوت الذي هدّدني بالهاتف؟.))
- شكراً لك يا أستاذ عادل. نتمنّى لك التوفيق. إن احتجت شيئاً خابرنا.
- حسناً، بارك الله بكم.
-

ـ 5 ـ

ورغم أن حادثة السيارة أحدثت هزّة كبيرة في أوساط أكابر البلد، إلا أن أجهزة الأمن التابعة لهم قد رصدت تحرّكات الشبان، للقبض على مَنْ يتجاسر ويعتدي على أي منهم.

وهكذا شجعت أجهزة الأمن هؤلاء الشبان على متابعة ظهورهم وتحرّشاتهم، وأحاطتهم بأعداد متخفّية من رجال الأمن الذين انتشروا بين الناس يراقبون ويتابعون عن كثب.

ويُفاجأ عادل وهو في الصحيفة بظهور بلاغ غريب في الإنترنيت. وقد طلب فيه من نشروه إعطاء أوصاف ومعلومات تؤدّي للقبض على العملاق الكهل، مقابل جائزة مالية قيمة. لم يستطيعوا وضع أوصافه لتضارب حكايات الناس عنه. فشجعوا بذلك البلاغ أن يهتم الناس بجمع معلومات عنه.

تمنّى عادل أن يتوقّف فارس عن العملية التي أزمع القيام بها من جديد. ورنّ جرس الهاتف قربه.

– آلو. نعم.

سمع صوت فارس:

– سأنفذها اليوم قبل الظهر في الحي الغربي. إلى اللقاء.

سمع صوت انطباق السماعة فغمغم بقلق: ((أعانك الله يا فارس))

سمع صوت زميلته:

– خير يا عادل، أراك تتأمّل البلاغ الذي أعلن عن الكهل العملاق؟

– أهلاً بك يا سلمى.

– إنه بطل ذلك الكهل العملاق. ولكن لماذا ينتظرون أن يتقدّم الناس بأوصافه ومعلومات عنه، ولم يقم سوى بعملية واحدة. يعني ربما كان ما قام به حدثاً لن يتكرر.

- معك حق.

- أما زلت مفجوعاً يا عادل؟ يجب أن تتماسك، العصر الذي نعيشه لا يرحم يجب أن تحاول التفكير ببناء بيت جديد. ما زلت فتياً. أعلم أن الفاجعة كانت كبيرة. ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟

- أما زلت تسكنين في الحي الغربي يا سلمى؟

- نعم. إنه بعيد قليلاً. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ آتي مبكرة وأذهب متأخرة. والحي مزدحم بالناس. وأغلبهم من الفقراء الذين يكافحون في سبيل اللقمة.

- الأولاد بخير؟

- الحمد لله، إنهم متفوقون. تمنيت لو كانت لي ابنة بينهم. الصبيان متعبون يا عادل. أحياناً نتفرّغ إليهم بالكامل أنا ووالدهم.

- كل شيء سيكون على ما يُرام إن شاء الله. ما داموا متفوقين.

- أتشاركنا سهرتنا الصغيرة في عيد رأس السنة، إنها تقتصر علينا أنا وزوجي والأولاد فقط. ونتمنّى أن تكون معنا، أنت ووالدتك.

- شكراً لك يا سلمى، سأفكّر بالأمر.

لم يعرف عادل ماذا عليه أن يفعل، هل يذهب إلى الحي الغربي ويراقب ما يفعله فارس عن بعد، أم يظل في الصحيفة حتى نهاية دوامه؟

خاف أن يتبعه أحد فيكتشف أن له علاقة بالحدث بشكل أو بآخر، وهو ما يهدّد فارس لذلك قرّر البقاء. ينتظر حدوث الحدث، وإعلانه.

وفي مكان آخر استعدَّ فارس وغادة للقيام بعمل جديد. غيّر فارس من هيئته قليلاً وكذلك غادة. وضمن السراديب الطويلة تحت المدينة، سارا مسافةً كبيرة قبل أن يصلا إلى مكان فتحة الخروج من الأرض.

كانت فتحة مغطّاة بغطاء صلب فوقه تراب ونباتات، لا يشك أحد مهما كان متعمقاً بوجود تلك الفتحة. أعادا الغطاء إلى مكانه واتجها متفرقين صوب أكثر المناطق ازدحاماً في الحي الغربي. وهي منطقة لا تبعد أكثر من (500) متر عن فتحة النفق.

كان شارعاً مزدحماً، دخلت فيه غادة بقامتها الجميلة تتمشّى بهدوء. وعلى بعد أمتار جلس فارس يرتدي أسمالاً بالية وقد ربط رأسه بعصابة، واتّكأ على عصاه الضخمة.

اقتربت سيارة فارهة وأطلقت زمورها تبعد الناس. ولم تكترث غادة لها. أوقف الشاب الذي يقود السيارة، بفراملة القويّة، العجلات.

- ألا تريد أن تبتعد عن الطريق أيها الجميل؟

- إنه سوق شعبي، من النادر أن تمرّ هنا سيارة. وخاصة سيارة فارهة مثل سيارتك.

- أعجبتك؟ يمكنك أن تجرّبي الركوب فيها. تعالي.

- لا. لا أريد أن أجرّب ركوبها. ابتعد عني، إني في عجلة من أمري.

- لماذا العجلة؟ هل تواعدين واحداً. ؟

- وما علاقتك بذلك؟ تابع سيرك سأبتعد.

- أنصحكِ بسماع كلامي. وإلا سوف تندمين.

- ماذا تقصد؟

- هذا الجمال والزينة والارتباك يجب أن يكون من أجل موعد غرامي.

- وما علاقتك بذلك؟

- أنا أفضل من الذي تنتظرين تأكّدي.

انضم إليه زميله:

- وأنا أوافقه الرأي.

قالت:

- اعتقدتك وحيداً، لماذا تجلس في المقعد الخلفي وتخفي نفسك وراء الستار.

- حتى أتيح لك أن تركبي إلى جانبه. وقد نصطاد واحدة أخرى.

- تعتبرني طريدة صيد؟

- تعبير جميل. ومثير. نعم. لِمَ لا؟
- ابتعدا عني.
- لن نتركك، أنت طريدة صيد ممتازة حرام أن نضيّعها.
- لن أسمح لكما أيها الوغدان.
- انتبهي لكلامك. اصعدي السيارة سنتفاهم.
- اترك يدي أيها الوغد.
- لا. لن أتركك.

ولكنه صرخ متألماً:

- لقد عضّتني.
- وأظافرها طويلة أيضاً.
- اتركاني. هه. لن أسمح لكما هه.

ابتعدا عنها وهما يصرخان:

- لن نتركها سليمة وقد آلمتنا بأظافرها وأسنانها.

كانت غادة: ((أعان اللّه والدي. أرجو أن يكون قد عرف أنهما اثنان))

وعادت السيارة بسرعة كبيرة.

كان فارس متحضّراً لكل الاحتمالات، وقد عرف من حركة غادة أن هناك أكثر من شاب كما توقّع أن تلتم عليه جموع من الرجال يستعدّون للقبض عليه. لذلك تصرّف بذكاء وسرعة غريبة.

فحين عودة السيارة بسرعتها الكبيرة انتفض فارس بعصاه الضخمة ينهال على مقدمة السيارة الفارهة، ثم ليوقفها ويرفعها ويتركها تسقط وقد تأكّد أن الشابين قتلا، ولم يغب عن ذهنه أنه قد يتعرّض لحصار. لذلك التفت إلى الجموع المحتشدة وقد شعر أن رجالاً يطبقون عليه.

كال الضربات يميناً ويساراً قبل أن ينجح في الانسلال وسط الزحام في خطّ متعرج أوصله بأمان إلى باب السرداب المغطّى بالأعشاب، حيث كانت غادة بانتظاره.

كانت عملية كبيرة، حرّكت الجماهير بحكايات وقصص عن العملاق الكهل صاحب القوة الحديدية التي لا تُقهر.

وخلال دقائق وصلت المعلومات إلى جهاز الحاسوب الذي كان عادل يجلس خلفه.

لقد نجح فارس من جديد في قتل أولئك القتلة الذين يتّموا الأطفال ونشروا الأرامل والمفجوعين.

وفشلت خطّة أمن الكبار في القبض عليه. والتهب الشارع بالتغنّي باسمه وتلقيبه بأمل المظلومين. وهذا ما جعل فارس يحسّ بضخامة المسؤولية.

ولكن الذي فاجأ عادل ظهور صورة فارس على الإنترنيت بملامح تختلف عن ملامحه الحقيقية، حتى ملامح غادة كانت تختلف قليلاً عن ملامحها.

عرف عادل أن فارساً يتصرّف بذكاء، وأنه غيّر ملامحه في العملية الأخيرة بدقّة شديدة لقد عادت إليه فعاليته وألقه الذي كان في الماضي. وشعر عادل أن (فارس) بعمليتيه الجريئتين قد انتقم من قتلة الناس، الذين استهتروا من أجل متعتهم، بحياة الناس وسعادتهم.

ظل عادل في الجريدة حتى نهاية الدوام، وقبل أن يخرج، رنّ الهاتف قربه. فاجأه صوت فارس:

- قابلني في بيتي القديم بأسرع ما تستطيع.
- سأفعل ذلك.

أطبق السمّاعة وضغط على الأزرار يتصل بأمه:

- آلو. أمي.
- نعم يا بني. تأتي على الغداء.
- سأتأخر قليلاً.
- اتصلت الخالة (نعمت)، تريد أن تتصل بها إنها بحاجة لمساعدتك.
- حسناً يا أمي سأتصل بها.

– أنا انتظرك يا بني. مع السلامة.

فكّر: ((ماذا تريد الخالة نعمت مني؟ ربما تمرُّ بمشكلة معينة. سأتصل بها حالاً))، أدار قرص الهاتف سمع صوتها، عرّفها على نفسه فقالت:

– شكراً لاتصالك يا بني. أمر بمشكلة صعبة حفيدي الأكبر يعاني من مرض، يحاول الأطبّاء إخفاءه عني. أنا احتاج لمساعدتك أرجوك.

– حسناً يا خالة سأمرُّ عليكم قبل مغيب الشمس، أعطني العنوان بالتفصيل.

– سأملي عليك العنوان. حسناً يا بني.

ـ 6 ـ

قطع عادل المسافة إلى بيت فارس - رغم محاولته تضليل من يلاحقونه وقد افترض وجودهم بسرعة، فقد انتقل من (مترو) إلى (مترو) ثم استقلَّ سيارة أجرة، ثم قطار معلق.

وهو في كل تنقلاته يحاول أن يضلّل من يلاحقونه. وأخيراً وصل إلى منطقة بيت فارس القديم فجلس على مقعد معزول، ثم تمدّد كمن ينام وهو يرمق ما حوله كل فترة علّه يجد حركة مريبة. ونهض أخيراً وقد قرّر الاتجاه لبيت فارس الذي قابل فيه غادة لأول مرة. سمع سعالاً خلفه.

- ساعدني يا بني، لقد تعثرت وسقطت على وجهي. ويبدو أنني أعاني من كسر.

كانت عجوزاً متقدّمة في السنّ، تتأوّه من الألم:

- ساعدني . بيتي ليس بعيداً.

- تحتاجين للإسعاف، يلزم أن أنقلك للمشفى.

- لا. لا. أرجوك. بيتي ليس بعيداً. لا أريد الذهاب للمستشفى مهما كان الوضع.

- حاولي النهوض، سأساعدك.

تأوّهت:

- يبدو أن رجلي مكسورة. لا فائدة اتركني هنا. قد يساعدني الله فيميتني.

- لماذا هذا اليأس يا خالة؟ ولماذا لا ترغبين بالذهاب إلى المستشفى؟

- يتعاملون معي هناك كخرقة قديمة بلا فائدة.

- حسناً، سأحملك إلى بيتك، أنتِ في مقام والدتي، أين بيتك؟

أشارت له صوب منطقة التلال القريبة، حملها بهدوء، كانت خفيفة الوزن، وفجأة أحاط بهما مجموعة من الرجال المسلحين:

- إلى أين تأخذ هذه العجوز؟
- إنها والدتي، سقطت فكسرت رجلها.
- لماذا لا تحملها إلى المستشفى. سنساعدك.
- شكراً. لا أريد ذلك. سأعتني بها في البيت.
- سنعتني بك وبها. ضعها على الأرض.

كانت تتألم:

- آه. أكاد أموت.

قال أحدهم ساخراً:

- إذن لنسرع قبل أن تموت.
- أعتقد أن بها فائدة؟
- نعم. بالتأكيد. هه. قيّدوا الرجل. لا حاجة لتخديره.
- ماذا تريدون أن تفعلوا بي؟
- سنأخذك في نزهة جميلة.

حاول مقاومتهم بقوة ولم يكن الأمر سهلاً:

- يبدو شرساً، يحتاج لمخدّر.

وإذا بصوت صارخ يجمدهم:

- ابتعدوا عنهما أيها الجبناء.
- الكهل العملاق. أطلقوا عليه النار، لا تنتظروا.
- أصبح بيننا من الصعب أن نطلق عليه النار دون أن نصيب رجالنا.

أصرّ على إطلاق النار:

- بسرعة ولو أصيب رجالنا. إنه خطر علينا.

- لن يصمد أربعة رجال أنذال مثلكم أمامي.

لم تستمر المعركة سوى لدقائق، فلقد أصابهم فارس بعصاه الطويلة وأوقعهم على الأرض وهم يتأوهون من إصابات متعدّدة.

ثم طلب من عادل عونه في تقييدهم، وكمّ أفواههم.

- يجب أن ننتهي سريعاً منهم.
- ولماذا تقيدهم وتكمّ أفواههم؟
- وهم بهذه الإصابات، سيكونون غنيمة لزملائهم من الذين يعملون في بيع الأعضاء لبنوك الأعضاء البديلة.
- بنوك الأعضاء البديلة؟ يبدو أن هناك "مافيا" قويّة تعمل في هذا الاتجاه.
- نعم. وكانوا يسوقونكم إلى هناك. أنت وهذه العجوز الغائبة عن الوعي.

كان أحدهم يصرخ بهستيريا:

- لا. لا. أرجووووكم.

علّق فارس:

- إنه يعلم أن زملاءه لن يحموه في بيع أعضائه، عضواً عضواً حتى يموت.
- يبدو أنه يعرف ذلك جيداً. إنه يحاول أن يقول شيئاً.
- أمامه وقت طويل ليقول ما يشاء.

كانت العجوز تتأوّه:

- يبدو أن حالتها سيئة.
- تقول أن بيتها قريب؟
- أعلم ذلك. حفيدها اختفى منذ أيام. كان في الرابعة عشرة. وهي تخرج لتبحث عنه آملة أن يعود إليها. لم تترك مشفى أو قسماً صحيّاً صغيراً إلا وأتت تستفسر دون فائدة.

- لماذا لم تسأل الشرطة؟

- عمّمت الشرطة أوصافه من خلال شبكة الإنترنيت. ولكنها تعرف أن لا فائدة من ذلك. لن يعود إليها أبداً. يبدو أنه وقع في فخ هذه العصابات الخطيرة التي تبيع الأعضاء إلى بنوك الأعضاء البديلة. إنها تجارة رابحة مادام الأثرياء يدفعون المال الكثير لتبديل أعضائهم.

- وهي تجارة شرعيّة، بدليل السماح بتواجد بنوك الأعضاء البديلة.

- هذه البنوك للمتبرّعين أو الذين يبيعون بعض أعضائهم، وهي محكومة بقوانين واضحة من الصعب خرقها، إلا أن بعض المشافي الخاصة هي التي تورّد الأعضاء لبنوك الأعضاء البديلة.

- كيف حدث وجئت إلى هنا؟

- تأخرت عن القدوم فشعرت بالقلق.

انشغل فارس بشدّهم بالحبال:

- ماذا تفعل؟

- سأعلقهم بالحبال على أعمدة النور في الساحة أمامنا. لن يطول الوقت عليهم فسيأتي من سيعتبرهم كنزاً ثميناً. خاصةً بعد مغيب الشمس. الناس في قيلولة الآن.

- 7 -

أنهى فارس مهمة تعليق الرجال الأربعة على أعمدة مصابيح الشارع. وكانت العجوز في ذلك الحين تتأوّه من الآلام الهائلة التي تعتريها. وحين عاد فارس وعادل إليها وجداها في غيبوبة.

كان من الواضح أنها ستموت، فلقد آذاها الرجال الأربعة بالتعامل معها بقسوة وإلقائها على الأرض كخرقة بالية. دون أن يهتمّوا بكسورها وجراحها. حملها فارس واتجه مع عادل صوب منطقة الآثار، وحكى فارس لعادل عن حفيدها المختفي وأنه يتوقّع أن يكون مخطوفاً من قبل عصابات الرقيق التي كثرت في السنوات الأخيرة نتيجة ولع الأثرياء بشراء الجواري والخدم.

كانت غادة تنتظرهم في القبو القديم الأثري. وبعد أن قدمت لهم العصير، بيّن فارس سبب استدعاء عادل السريع.

– رأيت الصورة التي عمموها على شبكة الإنترنيت، وهي لا تشبهني. لذلك لن أتوقّف عن متابعة عملياتي. كنت أريد أن تعرف أنني عرفت قاتل زوجتك وطفليك. وأنني أتوق أن أصطاده غداً وقد عرفت ولعه بالنسوة الجميلات المتزوجات اللواتي ينتقلن مع أطفالهن.

– ماذا تقول؟

– اسمع يا عادل. قد تراني قاسياً في التعامل معهم، ولكنني أقول لك إن عدد المقتولين الذين سجلوا في حوادث مشابهة ضد مجهولين تجاوز في المدن الكبيرة عندنا (الستين ألفاً)!

– (60) ألفاً؟

– وهو رقم ليس صغيراً، أما من قام به من أبناء الأثرياء والمتسلطين فلا يتجاوز عددهم المئات. سنحتفل غداً برأس سنة جديدة وسيدخل عام (2025)

ونحن نعيش مشاكل متفاقمة في غالبية القطاعات. ستكون حزيناً بالطبع دون زوجتك وولديك لذلك سأدلّك على المكان الذي ستجدني فيه أنا وغادة، وستحضر والدتك لنسهر سويّة.

– ولكنك تنوي القيام بالعملية غداً. كيف؟

– لا تقلق رسمنا الخطّة أنا وغادة جيداً، تمكّنت غادة من تأمين طفل وربما مع طفلة للمشاركة في العملية.

– أنا خائف عليك.

– لا تخف يا عادل. أنا أمرُّ بأمتع أيام حياتي لشعوري أنني أحقّق العدالة في حربي ضد أولئك الأنذال.

– ولكن الحادثة الثانية ستجعلهم أشدّ حصاراً لك وأكثر توزيعاً لرجالهم في صفوف الناس ليقبضوا عليك أو حتى ليقتلوك.

– كل ذلك لا يهم. حتى وإن قُتلت، سأكون شهيد مبادئي، لا تخف مررت بظروف أقسى بكثير من هذه الظروف وخرجت منها سليماً معافى.

قالت غادة:

– ولكنها السنّ يا أبي. ؟

– أرأيت مني ضعفاً يا ابنتي وأنا على أبواب الستين؟

– لا. أبداً.

– أنا مثل، شجرة ثابتة الجذور تستعصي على الاقتلاع مهما كانت العواصف شديدة. أما زالت تلك العجوز تتنفس؟

– أعتقد أن تنفسها بطئ جداً لدرجة أنني لا ألاحظه.

– هه. إنها ميتة يا ابنتي. رحمها الله. هيا يا عادل ساعدني في الصلاة عليها ودفنها.

دفن عادل مع فارس العجوز، وودّعه بحرارة راجياً له السلامة والأمان في عمليته، ووعده أن يتصل به للاتفاق على سهرة رأس السنة.

خرج عادل من بيت فارس وقد شعر بإكبار لهذا الرجل الخارق الذي نذر نفسه للعدالة في زمن قلَّ فيه الرجال. وتمكّن بعد جهد من الوصول إلى بيت الخالة (نعمت) عند غروب الشمس.

طرق الباب، فسمع صوتها.

– أنا عادل يا خالة.

– أهلاً بك يا بنيّ. أنا آسفة دفعني القلق للاتصال بك. أنا لا أعرف أحداً هنا. أو لا أثق بأحد سواك. تعلم كم أنا قريبة من والدتك.

– لا عليك يا خالة، سأبذل جهدي لمساعدتك.

– حفيدي (مجد) يشتكي من مرض عضال مجهول. حين أسأل الأطباء عنه يراوغون. ويدّعون أن لا علاج له. إنه مُلقى في الغرفة الثانية بلا حول ولا قوة.

– وكيف حدث له ذلك؟

– تأخرَّ في عودته من المدرسة وقد أتت الحافلة وهو لم يكن بها. قيل لي أن رجلاً كبير السنّ اصطحبه إلى خارج المدرسة.

– اصطحبه رجل غريب؟ كيف رضي المشرف في المدرسة أن يأذن له؟

– قال مشرف المدرسة أن المسنّ كان يتحادث بودّ مع مدير المدرسة واعتقده أحد معارفه. لذلك سمح له باصطحاب الصبي على أن لا يتأخر. خاصة وأن الصبي قد انسجم تماماً مع المسنّ.

– ومن كان ذلك المسنّ؟

– لا أدري . أنا محتارة في ذلك. الصبي نفسه لم يعرفه.

– وكيف عاد مجد. ؟

– بعد ذهاب الحافلة بقليل، طرق الباب. كان متعباً جائعاً يشتكي من ألم في بطنه. وحين اصطحبته للطبيب، لم يجد فيه سبباً للتعب. ولكنه نصحني بأخذه للمستشفى المركزي، وهناك ظلّ نائماً ليوم واحد وقد عاد في مساء ذلك اليوم الذي رأيتني فيه. مع طبيب من معارف ولدي. كان هو الذي

يعتني به. أخبرني الطبيب أنه يشتكي من علّة غريبة. ولم يزد على ذلك وأنا واثقة أنه يخفي عني شيئاً. أعتقد أنك تعرف ذلك الطبيب إنه الدكتور (شاكر) الأخصّائي بالجراحة العامة.

- الدكتور (شاكر السايح) ؟.
- نعم. لا أدري ماذا أفعل الآن يا بنيّ؟
- هل أستطيع رؤيته؟
- نعم. تفضّل.
- قادته إلى غرفة الصبي، يهمس لها:
- أغلقي الباب علينا. إنه يعرفني جيداً.

سأله بعد خروج جدته:

- يا مجد كيف حالك؟
- أنا متعب وأشعر أنني أدور. لا أستطيع أن أحرّك يدي.

فكّر قلقاً:

- ((بالتأكيد هناك سرّ، وقد يعرفه الدكتور شاكر.))
- اسمع يا عمّاه. أنا أتألم هنا. حاول العم شاكر علاجي، ولم يستطع.
- أين؟ هل أستطيع أن أرى المكان الذي يؤلمك؟
- لابأس أنت في مقام أبي. هنا.

وأشار بيده إلى جرح نحو خمسة سنتمترات، ينزُّ قيحاً. في بطنه.

- منذ متى أنت مصاب هنا.
- لا أدري. أعتقد بعد أن تركت (الشيخ عنبر) صديق جدّي.
- الشيخ عنبر صديق جدّك؟ ماذا تقول؟ لم أسمع به من قبل. هل تعرفه جدتك؟
- طلب مني أن لا أذكر اسمه أمامها، فهي تكرهه منذ أيام جدي.

فاجأته حالته ((إنها لعبة كريهة. في الأمر سرّ بالتأكيد))

استأذن عادل من الخالة (نعمت) في الخروج لدقائق حيث تكلّم من هاتف عمومي مع الدكتور شاكر، وصعق تماماً حين تأكد أن ما توهّمه كان صحيحاً، فلقد تعرّض الطفل لقرصنة من ذلك المسنّ وربما كان رجلاً (متنكراً) يشاطره في العملية آخرون. سرقت خلال هذه القرصنة بعض أعضاء من جسمه. وبيعت بالتأكيد بأسعار كبيرة.

شعر عادل بالحقد على أولئك القراصنة الذين اعتدوا على طفل بسرقة أعضاء من جسمه، إحدى كليتيه وربما أجهزة أخرى من جسمه. كان الجرح أسفل البطن، خجل الصبي ذو الرابعة عشرة أن يري مكانه لجدّته.

رجا عادل أن يستطيع حلّ المشكلة مع الدكتور شاكر. ولكن الدكتور شاكر قال له بيأس، إن البحث عن أجهزة بديلة وتجريبها سيكون عملاً شديد الخطورة على الصبي الذي فقد الكثير من مناعته. وفي رأيه أن الصبي يسير نحو الموت الحتمي.

– أتعرف يا عادل، حين اكتشفتُ ذلك كدتُ أُجنّ وأنا أعلم الظروف التي أودت بحياة والد مجد ووالدته.

ذهبت إلى المدرسة وسألت المدير عن ذلك المسنّ، فأكّد لي أنه أبرز له بطاقة انتمائه لجمعية رعاية اليتامى. وأنه عرف أن (مجداً) يتيم، فأحب أن يدخل السرور إليه.

– ذلك الوحش اللئيم.

– نعم. وهناك وحوش كثيرون مثله ينتشرون بين الناس ويمارسون قرصنتهم على الفقراء والمعوزين.

– شكراً لك يا د.شاكر. يجب أن نلتقي قريباً.

– إن شاء الله. وأرجو أن تكون قد كبرت على جرحك.

– شكراً لك. وأرجو أن تظلّ على اتصال بالخالة (نعمت)

– بالتأكيد مستحيل أن أتركها وحدها، وأنا أتوقّع موت حفيدها بين ليلة وأخرى.

وضع السماعة وعاد عادل إلى بيت الخالة نعمت وحاول تهدئتها وأكّدّ لها أنه سيظل على اتصال بها ثم غادر البيت في ذلك الحي الفقير واتجه عائداً إلى بيته.

قبل أن يصل الشارع الذي يفضي إلى بيته، شعر بأن أحداً خلفه فالتفت ليجد سلمى زميلته، التي اقتربت منه وسلّمت بسرعة.

– زوجي ينتظرني في ناصية الشارع. خذ هذا المغلّف يا عادل واطّلع على ما في (ديسك) الحاسوب داخله. لقد سهر زوجي الليل بطوله أمس، وظلّ طوال اليوم يعمل به حتى أنهاه. وقد تردّدت اليوم صباحاً في الحديث معك حول ما يفعله زوجي لك.

– إنه موجه ليّ. ؟ معلوماته تتعلق بي؟

– نعم. ستقرأ كل شيء وتعرف. وداعاً.

- 8 -

وضع المغلف الصغير في جيبه الخلفي ونظر حوله يتأكد أن لا أحد خلفه ثم اقترب من باب المنزل. وهو ينظر ما حوله. قبل أن يضع المفتاح في القفل ويفتحه ويدخل.

أغلق الباب بهدوء، كانت أمه تنتظره في الصالة وقد تأخر عليها.

- عدت أخيراً يا بني. .
- أنا بخير يا أمي لا تقلقي. هه لم يخابرني أحد؟.
- لا. جاء شخص مسّن قبل قليل يسأل عنك، قلت له إنك لم تعد بعد.
- شخص مسنّ؟
- نعم رأيته من (العين السحريّة) شخص بلحية بيضاء صوته متهدّج قليلاً. قال إنه قد يعود الليلة لرؤيتك. ولم يقل غير ذلك.
- لابأس يا أمي. أنا جائع. جهّزي لي الطعام، سأجلس خلف الحاسوب قليلاً.
- حسناً يا بني.

وضع عادل ((القرص)) في الحاسوب، يستعرض ما كتبه زوج سلمى. كان تقريراً كبيراً حول أعمال أولئك الناس الذين يدهسون بسياراتهم الأبرياء. وقد ذكرت بعض أسمائهم.

تمكّن زوج سلمى من جمع معلومات مهمّة حول أولئك الناس من مصادر متعدّدة، وكان التقرير يحوي رسوماً وخرائط وصوراً يبدو أنه بعلاقاته الممتازة قد حصل عليها من أجهزة أمنية.

عرف عادل من قام بدهس زوجته وطفليه. ورأى صورهم. وشعر بدمه يغلي من القهر. ثم فكّر قليلاً أنه يجب أن يرسل ما في هذا الديسك بكامله إلى غادة.

عرف أن غادة تتابع الحاسوب باستمرار. فأرسل لها رسالة عاجلة عبر البريد الإلكتروني. يبدو أنها تلقّتها فوراً، فأرسل لها بسرعة كل ما ورد في التقرير، ثم خزّنه بكلمة سرّ صعبة ومعقّدة وأخرج الديسك بعد أن مسح ما فيه. وألقاه في سلة المهملات.

كانت والدته تنتظره وهي تراه غارقاً بالعمل وقد أستمهلها لينهي ما يقوم به. ثم جلس بعد ذلك يتناول طعامه وقد تذكّر ذلك المسنّ الذي سأل عنه:

– من يكون ذلك المسنّ؟!. أصبحت غير مطمئن إلى أولئك الناس الذين يتنكّرون بأزياء كبار السنّ ويقومون بأعمال مريبة.

– مازال الهمّ يعشش في صدرك يا بني؟. يجب أن تهدأ قليلاً.

– لن يزول الهمّ سريعاً يا أمي. أنت تعرفين أن ما حدث كان صعباً جداً. ولكني أحاول أن أتأقلم مع حياتي الجديدة.

ورنّ جرس الباب الخارجي سألته أمه:

– ربما كان ذلك الشيخ؟. هل أفتح الباب؟

– لا. انتظري قليلاً. يجب أن أرى وجهه.

نظر من العين السحرية بدا له متقن التنكّر فتح الباب متردّداً:

– خير. ؟ من تريد. ؟

– أريد أن أراك لبضع دقائق. لا تخف يا بني. أنا رجل بسيط. ولا أحمل لك سوى ما ترغب معرفته.

– تفضّل. تفضّل.

– لن أبقى سوى وقت قصير. أحمل لك معلومات هامة في هذا الديسك. إنها حول ظروف مقتل زوجتك وطفليك.

– يحمل "ديسكاً" أيضاً؟ ليتني أشدّ لحيته لأعرف إن كانت حقيقية فعلاً. ؟

– لا تستغرب مجيئي إليك. أنا من الحيّ نفسه هنا. كنت أستاذاً جامعياً وقد تقاعدت، أنا أجلس لساعات طويلة خلف جهاز الحاسوب. وقد تمكّنت من جمع هذه المعلومات، اطّلع عليها لا أريد أن أتحدّث كثيراً.

- سنجلس سويّة يا عم. فيما تعدّ أمي لنا العصير.

- لا أريد شيئاً. سأذهب الآن. اجلس أنت خلف حاسوبك واطّلع على ما في هذا "الديسك" من معلومات تهمّك كثيراً. عن إذنك.

- انتظر يا عم، اشرب العصير أولاً.

- لا. لا وقت لديّ. يجب أن أعود إلى زوجتي إنها وحدها الآن.

فتح الباب وخرج مسرعاً قالت الأم:

- لم يعجبني شكله؟. له حركات مريبة. تبدو أصابعه ليست أصابع رجل متقدّم في السن.

اقترب من الحاسوب:

- سنرى ما يحوي هذا الديسك. إنه أثقل من الديسك العادي.

- أنا خائفة يا عادل. لن أتركك تضعه. لست مطمئنة.

- معك حق ربما حوى فيروسات تدمّر الحاسوب وتخربه تماماً.

ورنّ جرس الهاتف قربه رفع السماعة:

سمع صوتاً أجش:

- هه. تريد رؤية ما في الديسك؟. هه. انتظر قليلاً. لن تستطيع مع الأسف إخراجه. أعلم أن الفضول دفعك لوضعه بسرعة في حاسوبك ثوانٍ قليلة ونسمع الانفجار من مكاننا ، لن تستطيع القيام بشيء. ولن تصل حتى إلى الباب. ستموت. ستموت.

قال لأمه مذهولاً:

- إنه ديسك يتفجّر بعد وضعه في الحاسوب، الحمد لله أنني تردّدت في وضعه.

- ألا خطر من وجوده هنا. ؟

- أعتقد أنه مبرمج لينفجر داخل الحاسوب.

فكر قلقاً: ((إنهم يكمنون في مكان ليس بعيداً عن البيت. ماذا أفعل قد يأتون إليّ؟.))

ولم يدرِ عادل كيف اتصل بقسم الشرطة، بذلك الضابط الذي يعرفه فارس. وكيف حضر دون سيارة الشرطة خلال دقائق. حيث سلّمه الديسك وحكى له ما جرى. فكتب تقريره وأوصاه بالحرص. وترك خفية بعض رجال الأمن يحومون حول بيته لحمايته.

شعر عادل بالاطمئنان بعد ذهاب الشرطة. ونام بعمق. وسط دهشة والدته. أما فارس فنفّذ عملية مرعبة صباح اليوم التالي. سارت غادرة بزيّها الجديد مع طفلين في شارع مزدحم، وكان فارس متنكّراً بزي متسوّل يحمل عصاه الكبيرة المحشوّة بالحديد والتي اعتاد عليها منذ سنوات.

كانت ثقيلة لا يستطيع الآخرون رفعها وتحريكها كما يفعل فارس. وحين أتت السيارة الفارهة عرف فارس أن رجال أمن تلك السيارة في كل مكان ومع ذلك لم يخف، وقد اعتمد على حركة الجماهير بعد الحادث، حاول الشاب مداعبة غادة والتحرّش بها وهي تمسك الطفلين بيديها ولكنها أنّبته ولمّا زاد من محاولاته هزّت رأسها متضايقة.

اقترب المتسوّل منهما وهو يمدُّ يده. أشار إليه الشاب أن يبتعد، ولكنه زاد من توسلاته فانزعج الشاب منه ومدّ يده يدفعه في الوقت الذي انطلق سهم من يد المتسوّل ليستقرّ في القلب، ذهب المتسوّل، وأظهرت غادة أنها مازالت تؤنب الشاب ثم أمسكت الطفلين وابتعدت وانتظر الناس حركة السيارة ولكنها ظلّت في مكانها في حين اختفى المتسوّل كما اختفت غادة والطفلين.

كان فارس قد غيّر من خطته في آخر لحظة واستوعبت غادة بسرعة هذا التغيير. وظلّ الناس يراقبون السيارة الواقفة دون أن يجرؤوا على الاقتراب منها، ولما اقترب رجال الأمن بعد عدّة دقائق وقد ارتابوا بالأمر، فوجئوا بالشاب القتيل.

كانت غادة وفارس حينها في السرداب الطويل. وخلال مدّة قصيرة قرأ عادل تفاصيل الحادثة في الإنترنيت. فشعر بالزهوّ والفخر. واستعد ووالدته للسهر في اليوم التالي مع فارس وغادة في ليلة رأس سنة (2025). وقد شعر أن إعجابه بغادة يتطوّر إلى حبّ جارف عميق.

قضيّة من الزمن القادم

1

استعدّ أسعد للسفر وبكّر في الذهاب إلى موقف الحافلات للحاق بالحافلة التي ستنطلق الساعة السادسة إلى تلك المدينة الصحراوية. في العام 2032م.

تستغرق الرحلة عادة نحو ثماني ساعات، وسيصل متعباً إلى الفندق حيث سيرتاح لبعض الوقت، قبل أن يصحبه مضيفوه إلى محاضرته التي تحكي عن كوكب هجره الحب.

كان أسعد معروفاً بكتاباته التي تستشرف المستقبل وأحداثه قبل وقوعها بزمن طويل وقد بدا الكوكب كثير الفوضى مع بدء القرن الحادي والعشرين.

وصل في نحو السادسة إلا ربعاً وقد قطع الطريق من بيته إلى موقف الحافلات بزمن قصير بسبب خلو المدينة من السيارات ولّما يستيقظ فيها الناس بعد.

كان مقعده إلى جوار فتاة منقّبة تلفّ نفسها بعباءة سوداء، ولا يظهر سوى عينيها من تحت النقاب، وقبل أن تتحرك الحافلة جاء رجل لحيته طويلة وكثيفة طلب منه الانتقال إلى مقعد آخر لأن أم الفتاة ستجلس إلى جانبها.

- طلبت منهم وضعها إلى جانب أمها فقالوا لي، إن هذا سيحدث عندما تتحرّك الحافلة.

-لا بأس يا عم.

كان مقعد الأم في آخر الحافلة إلى جانب الشيخ الصلب.

شعر أسعد بأنّ رحلته هذه لن تكون مريحة، فلقد بدأت الحافلة حركتها فوق طريق فيه بعض الحفر والمطبّات. وهذا ما جعله يصعد ويهبط في مقعده مع كل حركة.

دقائق وبدأ صوت الشخير يعلو إلى جانبه. كان الملتحي قد نام بعمق وألقى ببعض ثقله ناحية أسعد، ولم ينقذه من ذلك سوى حضور المرافق الذي يجمع التذاكر. الذي نبّه الملتحي:

-يا عم، عدّل من نومك، أنت تلقي ثقلك على جارك، انتبه.

ردّ بغضب: ـ وما دخلك أنت؟

قال أسعد: ـ أرجوك يا عم. الرحلة طويلة ومع حركة الحافلة، أنت تلقي بثقلك على مقعدي؟

- طيب. طيب.

- شكراً لك، إن كان هناك مقعد خالٍ في مكان ما من الحافلة، أرجو أن تنقلني إليه.

-سنرى. وإن كنت لا أعتقد أن أحداً تأخّر عن الحافلة، فالمقاعد مشغولة جميعها.

خرجت الحافلة إلى الطريق الدولي، وشرد أسعد برحلته الطويلة، كان عليه أن يستقل الطائرة، ولكن تكلفة البطاقة جيئة وذهاباً إلى تلك المدينة، أكبر من المكافأة التي سيحصل عليها من المحاضرة.

نظر حوله يتأمّل الناس، فعلاً كانت المقاعد مشغولة جميعها بالركاب. وعاد الملتحي يتحرّك ويلقي بثقله ناحيته، حاول تنبيهه دون نتيجة فاستسلم للأمر.

شرد يفكّر بالواقع الذي وصل إليه بعد أن رحلت عنه (سامية) وتركته يواجه أعباء حياة قاسية. انفلتت الذكريات وقد شعر بعينيه تغرقان بالدموع:

- قلبي عليك يا أسعد. ماذا ستفعل من بعدي؟

-أرجوك اهدئي، سوف تجتازين هذه المحنة بإذن الله.

- ماذا تقول يا حبيبي؟ أيامي معدودة وأعرف ذلك. وأنا أشفق عليك وهذه الطفلة الصغيرة التي لم يصل عمرها إلى العامين. كيف ستقوم بأودها، وقد كلفك مرضي الكثير.

-لا داعي لهذا الكلام.

كان الطبيب يقوم بعمليّة فحص الأجهزة حولها:

- انخفض ضغطك قليلاً. يجب أن تقاومي يا سامية. ما زال هناك أمل.

انتابتها نوبة سعال. قبل أن تهدأ:

- ماذا تقول يا دكتور؟ أعرف نفسي، جسمي ينهار بالكامل، أرى الخراب يدخل خلاياه التي لن تستطيع علاجاتك ترميمها.

-يجب أن تقاومي من أجل ابنتك.

كانت الصغيرة تبكي في السرير الصغير إلى جانبها، طلبت من أسعد رفع السرير لوضعيّة الجلوس:

-سأهدهدها في حضني، جهّز لها الحليب سأرضعها.

همس الطبيب لأسعد: ـ اتركها تفعل ما تشاء، قد تعيد لها طفلتها بعض القوة.

-آه يا صغيرتي، لا أدري كيف ستكون حياتك بعدي.؟

***

استيقظ أسعد من شروده على مكابح الحافلة، التي توقفت فجأة، نظر خارجاً فوجد مجموعة من الناس تقف في وسط الطريق، قال السائق بصوت ليسمعه جميع الركّاب: ـ ماذا يريد هؤلاء الناس؟

قال المعاون: ـ سأرى الأمر؟ افتح الباب.

-لا لن أفتح الباب الآن.

-لا يبدون مسالمين، أشكالهم غريبة.

بدؤوا يطرقون على باب الحافلة وعلى جوانبها وهم يصرخون:

-نحن في الطريق الصحراوي، لا سيارات على الطريق.

استسلم السائق أخيراً ففتح الباب وهو يقول للمعاون: ـ كن حذراً.

-ماذا تريدون؟

-نريد إيصال هذه المرأة إلى المستشفى، على طريقك.

-ماذا جرى لها؟

-هي مريضة جداً، قد تموت إن لم يتم إسعافها.

-لا مكان لدينا في الحافلة، ماذا نفعل؟ هل ننزل بعض الركاب.؟

قال رجل يسندها: ـ هي أختي سأصعد معها، وسنجلس في الممر بين المقاعد.

قال شاب إلى جانبه: ـ وأنا سأكون معكما. قد تحتاجان مساعدة.

سألهم المعاون: ـ ولماذا هذه البنادق التي تحملونها؟

-هي جزء من أملاكنا، لا نتحرّك من دونها، الصحراء أحياناً تظهر العداء.

-سأرى ما يمكن فعله؟ سأسأل السائق هو صاحب القرار.

قال الأخ بخشونة: ـ هل يستطيع الرفض؟ سنضربه إن تمرّد علينا.

ثمّ صرخ الأخ بالشابّ: ـ هيا عاونها على الصعود يا عوّاد.

-سأفعل، هيا يا صبحة.

قالت كمن هي متألمة: ـ آه. يا عوّاد. ساعدني.

- تحركي، استندي علي.

قال الأخ لبقيّة المتجمّعين خارج الحافلة:

-اذهبوا يا جماعة، عودوا إلى القرية، واطمئنوا ستكون صبحة بخير.

-مع السلامة يا جماعة. هيا تحرّك أيها السائق.

-طيب.

تحرّكت الحافلة من جديد والسائق كما ظهر لأسعد لا يشعر بارتياح لوجودهم في الحافلة.

راقب أسعد، كيف مدّد أحدهم عباءته لتجلس عليها المرأة. كان لباسهم غريباً عن ركاب الحافلة.

وبعد أن تحرّكت الحافلة قليلاً. قام المدعو عوّاد وهو يهز بندقيته، بالطلب من شخصين من الركاب، أن يتنازلا عن مقعديهما له ولصبحة. وحدثت مشاجرة بينهما وبينه، فهدّدهما أن يستخدم البندقية، رضخا تحت التهديد ووقفا في الممر، متمسكين بالمحور الأفقي في أعلى الحافلة، أمّا الأخ الذي اطمأنّ لجلوس أخته في مقعد مريح، فنهر المعاون:

-قم أنت من مقعدك سأجلس مكانك.

نهض بخوف: ـ تفضل.

جلس قرب السائق. وهو يهمس بخوف: ـ وماذا سنفعل يا معلم.؟

ردّ السائق بصوت خافت:

-أمرنا لله، ما كان يجب أن أتوقّف. لم يكن في يدي الخيار أجبروني على الوقوف. لا بد وأنهم يخفون سراً، قد يكون شديد الخطورة علينا.

وفعلاً، بعد فترة قصيرة من الزمن. نهض عوّاد وهو يلقّم بندقيته:

-اسمع أيها السائق، أمامك طريق فرعي، انعطف فيه.

-قلتم إن المستشفى على طريقنا.

- تحرّك قبل أن أقتلك، أنا لا أمزح.

-يا إلهي، تقتلني؟ كما تشاء. أرجو أن تكون المستشفى موجودة فعلاً.

-ماذا تقول.؟

-لا شيء، لا شيء.

- استمر بالمسير أيها السائق.

قال مهمهماً ـ بدأ الطريق يصبح وعراً. من الصعب على حافلة مثل حافلتنا المتابعة.

-ستتابع ورجلك فوق رقبتك. أفهمت.؟

قالت امرأة محتجّة: ـ إلى أين تذهبون بنا؟ لدينا أعمال ومواعيد، من أنتم.؟

-لا تتدخّلي بشيء، ولا تغضبينا.

-ولكن. نريد أن نعرف إلى أين تذهبون بنا؟

- اصمتي. ممنوع الكلام والأسئلة.

قالت صبحة وقد نهضت من مقعدها: ـ لم تعد الحافلة تحت تصرّفكم! نحن سيطرنا عليها!.

- سيطرتم عليها؟ قالوا إنك مريضة.

-لستُ مريضة، ولن أمرض، عواد، يا عواد.

-ماذا يا صبحة؟ بدأنا نقترب من الكهف.؟

-نعم، خلف هذه الصخور، هناك من ينتظرنا.

-متأكدة.؟

-نعم، سيظهر الغول بعد قليل.

"يا إلهي، ما الذي حدث؟ يبدو أننا وقعنا في كمين لقطاع الطرق".

-انحرف إلى اليسار أيها السائق؟

"يا إلهي ماذا سنفعل، يبدو فعلاً أنهم أشرار، يعلم الله ماذا سيحلُّ بنا".

قال عوّاد بفرح: ـ ها قد ظهر معلمنا الغول.

- يا إلهي، أهذا هو الغول؟

كان رجلاً ضخماً بلحية سوداء، ولباس قديم، فوقه عباءة ضخمة، وقد لفّ كوفية حول رأسه.

توقفت الحافلة، وانحدر عواد نحو الرجل الضخم.

-أحضرنا الحافلة بكل ركابها.

-عظيم، أدخلهم إلى الكهف، صبحة، أين أنت؟

هبطت من الحافلة: ـ أنا هنا يا معلمي.

-رافقي النساء إلى الكهف.

-بأمرك يا سيّدي.

كان الملتحي ما زال نائماً. سأل أسعد: ـ هل وصلنا؟

-خطفوا الحافلة واعتدوا عليها. أصبحنا تحت رحمتهم.

نهض مدهوشاً: ـ هه ؟ من هذا؟ الغول؟

-أتعرفه.؟

- هو معلمي.

صرخ بحبور: ـ عوّاد. يا عوّاد. أنا هنا.

-من يصرخ باسمي.؟ انزلوا جميعاً من الحافلة هيا.

هبط من الحافلة: ـ أنا هنا يا عوّاد.

-من؟ المليحي؟ جئت في وقتك. إلى أين كنت ذاهباً.؟

-كنت سأسطو على الحافلة قرب قرية (الخفر) زوجتي وابنتي مسلحتان.

-ما زال (الدلو) يقوم بأعماله في (الخفر)؟

-طبعاً وبالتنسيق مع معلّمنا الغول.

-هيا، انزلوا جميعاً. لماذا تأخرت في الإعلان عن نفسك.؟

- كنت نائماً، كان من الضروري أن تنبهني زوجتي ولكنها في مقعد آخر وابنتي.

أخذوا يدفعون الركّاب:

-عجّلوا، لا وقت لدينا.

قال السائق: ـ ماذا سيفعلون بنا؟ يبدون مجرمين! التغطية غير موجودة في هذه المنطقة حتى اتصل بالشركة وأبلغهم.

قال المعاون: ـ أشعر بخوف شديد.

-كلنا خائفون. كان من اللازم أن نصطحب معنا بعض الحرّاس الأمنيين، على الأقل كانوا واجهوا هؤلاء وربما منعوهم من السيطرة على الحافلة.

أنزلوا ركّاب الحافلة، وساقوهم خلف الصخور وقد علَتْ أصواتهم الخائفة المحتجة. قال الملتحي:

- أنا وزوجتي وابنتي، كنا سنسطو على الحافلة قرب قرية (الخفر) هكذا خطّط لنا ا(الدلو).

-اسمع يا مليحي، لا داعي أن تتظاهر بالخضوع والمذلّة أمامي. أنا أعرفك أنت أشبه بالوحوش، رغم لحيتك الطويلة. وإخلاصك للدلو الذي ينفذ بعض مخطّطاتنا، ولكنه يقوم بأعماله – أحياناً - دون الرجوع إلى أحد. أين زوجتك وابنتك؟

اقتربت المرأة: ـ أنا هنا يا معلم. وهذه ابنتي ريّا.

-لديكم سلاح؟ هه؟

-نعم يا معلم، أين الكيس يا ريا؟

-تحت العباءة، أعلّقه في ظهري.

-ضعيه أمام معلمنا الغول.

فتحه الغول:

-هه. مسدسات وكواتم صوت وذخيرة، من (الدلو) طبعاً؟

-نعم يا سيدي، كنا سنسطو على الحافلة قرب قرية (الخفر) كما قلت لك.

صرخ ينادي عوّاد ، الذي قفز بسرعة ليكون بين يديه:

-أمرك يا معلمي ماذا تريد.؟

-خذ هذا الكيس وضعه في المستودع، سيساعدك المليحي في السيطرة على الركاب ولكن لا تسلّمه سلاحاً نارياً، سلّمه أي شيء، سكين، ساطور، بلطة! ولكن لا تسلّمه سلاحاً نارياً.

- أمرك يا معلمي.

2

كان كهفاً طويلاً متفرّعاً لسراديب. وجد أسعد نفسه فيه إلى جانب ركّاب الحافلة، الذين كانوا خائفين ورجال الغول يدفعونهم إلى الداخل.

اجتازوا سرداباً طويلاً، ليجدوا أنفسهم في مدخل لكهف آخر عريض أشار لهم رجال بدوا أنّهم ينتظرونهم في الدخول إليه، وتحرّكت صخرة ضخمة بشكل آلي لتغلق باب ذلك الكهف.

-يا إلهي. يبدو الكهف مضاء بمصابيح كهربائية. وهناك مقاعد منتشرة.

-هناك مقاعد كافية للجميع اجلسوا عليها، بسرعة.

-وماذا ستفعلون بنا؟

قال الغول ضاحكا: ـ ما زال الوقت مبكّراً على ذلك.

كان العام قد بدأ مضطرباً كالأعوام التي سبقته، وذلك الشهر الخامس فيه، أظهر مدى الاضطراب في أغلب مناطقه على الكوكب الذي هجره الحب.

جلس أسعد مكتئباً قلقاً، ما كان يجب عليه أن يأتي إلى هذه المحاضرة عن طريق البر، ولكنه كان محتاجاً للمال وقد وعد من استدعوه أن يقدّم لهم معلومات جديدة عمّا يحدث في بعض المناطق من فوضى واضطراب.

ابنته الصغيرة التي أصبح عمرها ثلاث سنوات بعد أكثر من عام على وفاة أمها هي في كنف أخته التي تسكن العاصمة. وهو مطمئن إلى أنها بخير، ولكن ما الذي سيفعله هؤلاء به وبغيره من الركاب؟

هل الاختفاءات التي تحدث للناس أحياناً في الصحراء مصدرها هذه الزمر من الناس الذين يسطون على الحافلات والسيارات العابرة، سُمعت أصواتٌ مذعورة قرب مدخل الكهف المغلق.

كان هناك تجمّعات لنساء ورجال وأحد مساعدي الغول يصرخ:

-لتتجمّع النساء أمامي هنا، ساعديني يا ريّا.

لعلع صوت الكرباج وريّا تصرخ: ـ اهدأن وإلاّ أعملت فيكنَّ الكرباج، اجلسن في هذه المنطقة، سوف نقتادكن بعد قليل إلى المكان المخصّص لكنّ.

ولولت إحداهنّ كانت امرأة في منتصف عقدها الرابع:

ـ ماذا ستفعلون بنا؟ أي ذنب ارتكبناه؟

- أنتن مفيدات لنا كثيراً.

-لدينا ارتباطات بأهلنا، ولنا أعمالنا، هناك من ينتظرنا.

ثمّ انفجرت المرأة تبكي: ـ أرجوك ساعديني لأعود إلى أهلي، أنا في وضع حرج.

ردّت ريّا بسخرية: ـ ستعودين إلى أهلك إن حالفك الحظ، وإلاّ قد لا ترين أحداً منهم.

- أرجوك، يا سيّدتي.

أخذت تبكي ثمّ اتجهت لمساعد الغول:

- أتوسل إليك أنت يا سيدي، تبدو رجلاً طيباً، ساعدني. ساعدني.

-ابتعدي، هي مسؤولة عنك وليس أنا.

لدهشة أسعد أخذت زوجة المليحي تنادي النساء بأسمائهن، ثم اصطحبت ريّا ابنتها واحدة منهن خارج الكهف، ثم عادت بعد دقائق لتصطحب واحدة أخرى.

أما الرجال وكانوا الأكثر تواجداً، فأخذ المدعو المليحي يستعرض أسماءهم التي يبدو أنهم أخذوها من قائمة ركاب الحافلة، وجاء دور أسعد أخيراً:

-تفضل معي، هذا دورك.

-دوري؟ ماذا تريدون مني؟

-سيرون ما يحتاجونه منك، هيا، تحرك بسرعة، لا وقت لدينا.

لا تدفعني أرجوك، سأتحرّك، سمعاً وطاعة.

وبدأت الأسماء تتالى نساء ورجالاً. وجاء دور أسعد أخيراً ذهب بصحبة المليحي، ليمر في سرداب طويل.

-هه يا جاري. ساعدتني، سأساعدك.

-وكيف ستساعدني يا عمّ.؟

- سترى كيف سيساعدك المليحي.

ما الذي يحدث يا اسعد؟ كيف صدف وجئت إلى هذا المكان الغريب؟ المليحي الذي أزعجك بشخيره وكان يلقي بثقله على مقعدك وهو نائم، يقودك إلى المجهول.

يستمر السرداب طويلاً طويلاً، حتى يتوقف المليحي أمام حاجز صخري يضغط على أحد الأزرار عدّة مرات لينفتح الحاجز.

- سترى أنني ساعدتك، قطعت بك هذه المسافة من أجل إنقاذك.

كان هناك مختبر طبّي مجهّز وفيه عدد من الأطبّاء والمساعدين، سلّمه المليحي إليهم:

-هه. جرى فحصه من قبل؟

-ليس بدقة، إنه قريبي.

-لا بأس يا مليحي سنوصّى به خيراً، هه، ما اسمك؟

-أسعد، هل أجلس هنا؟ على هذا الكرسي المتحرك؟

-نعم، سيأتي الطبيب بعد قليل.

-الطبيب؟ لماذا؟

-ليكشف عليك، المليحي قريبك أوصى بك.

وأتى الطبيب كان شابًّا متغطرساً، أجرى عدّة اختبارات عليه:

-هـه، اسمك أسعد، تبدو أجهزتك سليمة، حتى كليتاك تبدوان نظيفتين دون رواسب. لا بأس. قد يحتاجونك في أمر ما، ستقابل الغول فيما بعد.

-ماذا ستفعل الآن يا دكتور؟

- عمل جراحي بسيط، ثم تتصرف مع المليحي من جديد لتلاقي الغول، هو الذي سيقرّر ماذا سيفعل بك.

-ستجري عملاً جراحياً بسيطاً؟ هل أحتاج لهذا العمل؟ أنا لا أشتكي من شيء.

-هذا أفضل، ما سأقوم به وهو لمساعدتك، المليحي أحضرك إلى هنا من أجل عمل لا يؤثر على أدائك في الحياة.

همس مرعوباً: ـ لم.. تقل.. لي.. ما هو.. العمـ...ـل؟

لم يستطع إكمال كلامه كان الخدر قد بدأ يتسرّب إليه:

-أصبح مخدّراً بشكل كامل، هيّا ساعديني يا آنسة.

شعر أسعد أنه يغوص في بحر مظلم، وهو يقارع أمواجه، انطلق يحاول السباحة ليتخلّص من التيارات التي تشدّه نحو الأعماق، كأنه دوّار مخيف.

استمر يقارع الموج وهو يلهث، قبل أن تمتد يد وتشدّه إلى الأعلى ليجد نفسه مع زوجته التي كانت تبتسم وكانت إلى جانبها طفلتهما الصغيرة. ثمّ شعر بيد تهزّه ليصحو، نظر حوله بضعف شديد:

- آه. أين أنا؟

-أنت في المركز الإسعافي، كل شيء على ما يرام.

- أشعر بألم هنا. آه.

كان الطبيب الشابّ ينظر إليه بلا مبالاة:

-وجع العمل الجراحي. كل شيء سيعود إلى طبيعته، وستندمل جراحك بسرعة.

بحلق حوله ليرى عيّنات من أجهزة بشرية في أوانٍ زجاجية، كلى، أجزاء من كبد، عيون، طحال، دسّامات قلبية، شرايين، أصابع يدين، أصابع رجلين. بدأ يبكي مستسلماً لقدره:

-يا إلهي.. يبدو أنهم أخذوا بعض أعضائي! هه، يا إلهي.

وشوشته الممرّضة: ـ أنت تبكي، من أجل كلية وجزء من الكبد؟ كيف لو أرسلوك للمكان الآخر، كانوا اقتطعوا كل شيء فيك! وأعدموا فيك الحياة، وربما أرسلوك لتكون عينة اختبارات على الجراثيم الممرضة والطفيليات والعقاقير وربما الأسلحة الفتاكة.

"يا إلهي. هؤلاء مجرمون يبيعون أعضاء الإنسان، الآن فهمت، هذه عصابات تخطف البشر وتبيعهم، تبيع أعضاءهم كقطع بديلة عن تالفة".

-تبدو شاباً طيباً.

- ما الذي جعلك تقومين بمثل هذه الأعمال هنا؟ أنت صبية جميلة، حرام أن تصبحي مجرمة.

-إنها الحاجة يا أسعد، اسمك أسعد؟ نعم، نعم.

-الحاجة؟ من أجل المال نساهم في قتل الناس.

-أنا مجرّد أداة صغيرة.

-أداة صغيرة؟ المهم أنت أداة جريمة.

-أنا أمر بظروف صعبة، مضطرة لهذا العمل.

-هل أنت متزوجة؟

-لا، وأنت؟

-توفيت زوجتي قبل عام، لدي منها طفلة صغيرة.

-وما هو عملك.؟

-أنا كاتب، أكتب القصص والروايات.

-كاتب؟ خيالك واسع. قرأت الكثير من الكتب.؟

-نعم.

قطع عليهما حديثهما الهامس دخول أحد الأطبّاء الذي قال لها بصوت منخفض:

-خذيه إلى مكان إقامته المؤقتة، يبدو على نيّاته.

-حسناً يا دكتور، هو يكتب القصص، هكذا قال لي.

قال بسخرية: ـ إنه يخوض أحداث قصة أهم من كل قصصه.

على سرير نقال أدخلته إلى مصعد كهربائي، ثم وجد نفسه في ممر وهي تدفعه أمامها ثمّ فتحت بواسطة جهاز في يدها باباً، أدخلت فيه السرير ليجد نفسه في غرفة صغيرة نظيفة.

-حاول أن ترتاح، عندما تستيقظ سأجلب لك الطعام، فرزوني للعناية بك.

-لابأس.

وكان للقصة اتجاهات أخرى، في ذلك العام (2022) الذي كانت الفوضى فيه هي المسيطرة على أحداثه. شعر بالحاجة للنوم، وغرق في الحلم:

"ما الذي يحدث للأرض، كأنها تنفتح على الجحيم، وليس سوى القذائف النارية".

كانت أصوات الانفجارات تدوّي في أذنيه، كان كمن يطير فوق اللهب وليس سوى المشوّهين والقتلى، ورأى وجوهاً كالحة تبتسم بتشفٍّ. من هذه المرأة التي تلبس السواد؟ إنها سامية زوجته، صرخ يناديها: ـ سامية. سامية.

التفتت فرأته. اندفعت نحوه: " - أسعد. كنت أبحث عنك، هيا نهرب بعيداً، الحمم تنطلق من كل مكان، والأرض تهتز والركام يغطي كل شيء.

-آه. ما بك؟ أنت حزينة.

-لا أرى سوى السواد، الأبنية تنهار على ساكنيها، آه يا إلهي، ما الذي يحدث.؟

-انتبهي يا سامية.

رأى نفسه وهو يقفز محاولاً الوصول إليها قبل أن تنهار جدران بناء عليها والأرض تهتز وهي تصرخ.

***

استيقظ وهو يلهث ومنظر سامية التي يغطيها الركام وهي تمدُّ إليه يديها ضارعة، يشعره بحزن مرعب. كانت الممرضة إلى جانبه.

-كان حلماً مزعجاً؟

- نعم. كان كل شيء ينهار. يا إلهي.

-ربما بسبب الجراحة التي أجريت لك. أنت تهلوس أحياناً.

- ما نوع الجراحة التي أجريت لي؟ استأصلتم إحدى كليتيّ، وجزءاً من كبدي؟ أهناك شيء آخر، أشعر بوجع في صدري هنا. هه، هناك جرح.

- كانوا سيقصّون جزءاً من الأبهر، ولكنه كان في حالة غير مفيدة، أنت تعاني من مشاكل في القلب.

-لم تقولي لي ما اسمك.؟

-اسمي (دينا).

-تبدين فتاة طيبة فعلاً. ماذا سيفعلون بي؟ هل سيطلقون سراحي.؟

-ذلك الرجل الملتحي الضخم، المسمّى بالمليحي أوصاهم فعلاً بك ولكن زوجته قاسية متوحّشة وابنته ريّا نموذج لمن لا تملك قلباً، مهما خطّطوا لك لن تعامل كما عومل الآخرون.؟

-كما عومل الآخرون.؟

-سيستخرجون منهم أعضاء سليمة لزرعها في أناس لهم أعضاء تالفة وربما يجرّبون عليهم أدوية، أو كيماويات، أو فيروسات، أو ربما يطعّمون خلاياهم بجينات وراثية لها مواصفات معينة، الكثيرون يموتون من هذه الاختبارات والتجارب.

- يا إلهي يبدو الوضع شديد الخطورة.

- تشعر بالخوف؟

-وسط هذه الجو، من لا يشعر بالخوف يا دينا.؟.

-معك حق.

فتح الباب ودخل الطبيب الذي عاينه وربّما كان أحد من أجروا له الجراحة، سأل الممرضة:

-كيف حال ضيفنا؟

-إنه يتحسّن يا دكتور.

همس وهو يعطيها حقنة كبيرة: ـ احقنيه بهذا السائل المقوّي، نحتاجه في اختبار.

- حسناً يا دكتور.

وأردف: ـ بعد ساعتين، أرسل لك من ينقله إلى مخبر الجينات.

-طيب.

خرج الطبيب وهو ينظر إليه بعمق، سألها أسعد:

-هه. دواء جديد.

-إنه سائل مقوٍ للجسم ستتحسن عليه سريعاً، هه. قلت لي أنت تعمل في الكتابة.؟

-نعم.

-وماتت زوجتك ولديك طفلة صغيرة وحيدة.؟

-نعم، نعم، لماذا هذه الأسئلة؟

قالت بارتباك: ـ أنا أيضاً لدي وضع صعب، أمي مريضة، ووالدي مات قبل سنوات، ولي أخ أصغر مني، مقعد، أمي تحتاج للدواء دائماً وأنا أعمل هنا من أجل الانفاق عليهما.

-لماذا لا يساعدك الأطباء هنا في علاج أمك على الأقل؟

-من المستحيل أن أسلمها لهم، قد نموت بين أيديهم، اسمع يا أسعد. قرّب ذراعك، سأعطيك الدواء المقوّي.

-كنت تريدين أن تقولي شيئاً؟

بدت مرتبكة من جديد: ـ لا، لا شيء.

-تبدو حقنة كبيرة، سائلها مختلط الألوان.

-لأنه مجموعة من خلاصة الأعشاب المقوّية.

-كنت تريدين أن تقولي شيئاً أنا متأكّد.

- لا، لا، لا شيء. تعرف المليحي جيداً؟

-كان جاري في الحافلة. كانت ابنته في المقدّمة وكنت أجلس قربها في المقعد، أجلست أمها مكاني وجلست ووالدها في آخر مقاعد الحافلة؟

-فقط؟

-ضايقني في المقعد بشخيره، وحركته في نومه العميق، فصبرت على ذلك.

-عجيب لماذا يهتم بك كل هذا الاهتمام؟

-تعرفينه من قبل؟

- أعرف أنه يعمل مع (الدلو) وهو متعهّد آخر لمشافي في الأعضاء البديلة، ومختبرات التجارب على الجسم البشري.

-يعمل منفصلاً عن الغول؟

-لا أعتقد، ربما يعملان لنفس الشركة السرية، ولكن الغول أكثر منه انتشاراً، ويخاف الدلو من الغول. ويتجنّب إغضابه، اعتقدتك مقرّباً من المليحي.

-لا، لا أمتّ له بأية صلة، ولا أعرف عنه شيئاً.

فتح الباب من جديد ودخل المليحي وهو يبتسم:

-كيف حال صديقنا أسعد؟

-أهلاً بك. أشكرك لأنك ساعدتني.

-قولي لي يا آنسة، متى يصبح صديقنا مستعدّاً للخروج.

-بعد ساعتين سيأتي طبيب ويصحبه إلى مخبر الجينات.

احتجّ وهو يهزّ رأسه: ـ ماذا تقولين؟ هذا لا يصح، هل أخذوا رأي الزعيم، الغول؟

- لا أدري.

خرج مسرعاً وهو يقول:

-حسناً، سأعود بعد قليل.

سألها أسعد: ـ لماذا كان غاضباً؟ كان ينظر إليّ شارداً.؟ ما السبب أتعرفين؟

-لا أدري.

لأول مرّة بدأت دينا تفكر في هذا الشاب وقد شعرت أنه أحد ضحايا الحياة مثلها.

ولكن الطبيب عاد بعد قليل:

-هل هو جاهز؟ أعطيته الحقنة المقوية؟

- نعم، وبدأت تأتي مفعولها.

-خير يا دكتور؟ أتريد شيئاً مني؟

-سننقلك إلى مكان آخر، لنطمئن على صحتك أكثر.

"ما الذي يريده مني؟ لماذا إلى مكان آخر؟ في الأمر سرّ وربّما كان سرّاً خطيراً".

-كيف ستنقله؟

-سيأتي بعد قليل من ينقله إلى هناك.

التفتت لأسعد: ـ ألا تستطيع السير؟ أعطيناك مقوّيات ممتازة؟

-بعد أن نزعتم جزءاً من كليتي وجزءاً من كبدي، وربما أجزاء أخرى؟ تتوقّع أن أعود إلى طبيعتي سريعاً.؟ لماذا من أجل اختبارات على جسدي؟ أم من أجل شيء آخر.؟

-ومن قال لك ذلك؟ من قال أننا استأصلنا بعض أجزاء جسدك؟

-أنا أشعر بوجع في أجزاء من جسمي ليس فيها سوى الجروح، ثم إنني أشعر بفقدان كليتي اليسرى، ووجع هنا، وهنا أيضاً؟ أنا أشعر بكل شيء، لست من جماد يا دكتور، حتى وقت عملياتكم وجراحاتكم في جسدي كنت أسمع ما تتكلمون به بينكم لم أكن مخدراً تماماً.

-ماذا تقول؟ تحدثت له بشيء يا دينا.؟

- أبداً يا دكتور، يبدو شاباً عارفاً.

ودخل المليحي: ـ كيف حالك يا أسعد؟

-لست بخير، يريدون اصطحابي إلى مكان آخر، ربما سيأخذون أشياء أخرى من جسدي.

-جئت لأصحبك إلى معلمنا الغول.

قال الطبيب بغلظة: ـ ولكني جئت لاصطحابه إلى مكان آخر. نحتاجه كثيراً.

-وأنا أخذت أمراً من معلمنا الغول، بأن أصحبه إليه.

-هذا أمر آخر.

انفرد بالمليحي وقد بدا متوتّراً: ـ ما جئت إلاّ لتنفيذ أمر رئيس اللجنة العلمية، وجد أن جسد هذا الشاب قوي ويمكن الاستفادة منه كثيراً في اختبارات وتجارب هامة.

دخل رجلان يرتديان ثياباً موحّدة قال المليحي:

- جاءا لمساعدتي. سنرى ما يقوله معلمنا الغول، هيّا ساعدوه في الانتقال إلى مقرّ معلمنا.

همست الممرضة: ـ سأراك فيما بعد، أنا متأكدة.

3

ساعده الرجلان حتّى المصعد الذي هبط به إلى سرداب آخر، ثم وجد نفسه أمام رجل ضخم يجلس على مكتب في صدر قاعة واسعة، والجميع يقفون حوله باحترام.

-أهلاً بك يا أستاذ أسعد، من الغريب أنني قرأت بعض قصصك وهي شيقة كثيراً.

-شكراً لكم.

-كانوا سيأخذونه يا سيدي إلى المختبر رقم (1)، رغم تعليماتكم بعدم المساس بأشياء أخرى في جسده، غير التي استؤصلت.

-لا بأس يا مليحي. أنت تحاول التوسّط لإنقاذه، وأنا أيضاً، سآمر بإنقاذه، لأنني أحببت قصصه.

-شكراً لك يا سيدي.

-خذه إلى مكان ليرتاح فيه، وأمّن له كل وسائل الراحة.

-ولكن (الدلو) ينتظرني يا سيدي؟ سأطمئن عليه وأذهب.

-سأكلم (الدلو). ابق عندنا أنت وزوجتك وابنتك، سيحضر (الدلو) إلى هنا، لنرى ما قام به من أعمال في الفترة الأخيرة.

-حسناً يا سيدي، سأصطحب أسعد إلى مكان يرتاح فيه.

-وحذّر الآخرين من الاقتراب منه.

همهم أسعد: ـ شكراً لك يا سيدي.

كان أسعد يستمع مدهوشاً لموقف الغول منه، وهو الذي يشرف على هذه العمليات الخطيرة التي تحدث في هذا الكهف وسراديبه. اختطاف أناس في سيارات في حافلات كبيرة، وربما في تجمّعات سكانية كقرى صغيرة أو

أحيـاء في مـدن. حيـث ينتشـر رجـال ملثّمـون، بأسـلحة خفيفـة، يصـادرون الحرّيات ويخطفون بعض الناس في موجات من الهجمات المنظمة.

قاده المليحي إلى جناح في القبو، غرفة واسعة فيها سرير مريح ومقاعد وأجهزة كهربائية وحاسب عملاق.

-سأطلب منهم إحضار الغداء لك.

أشكرك، لقد وقفت معي كأصدق الأصدقاء، وأقرب الأقرباء، لولاك لكنت الآن مسجّىً في مخبر من المخابر المتطوّرة عندكم فاقد الوعي أنتظر الموت.

-لابأس يا أسعد، المهم أنت بخير.

-سأسألك سؤالاً وأرجو أن لا تفهمه بشكل سلبي؟

-خير؟ اسأل؟

-لماذا حميتني، ومنعتهم من إيذائي كالبقية.؟

-سأقول لك، جلوسك إلى جانب (ريّا) ابنتي، كان طبيعياً وقد رغبت أمها بالجلوس إلى جانبها، لتتخلّص من شخيري، ومن ثقل نومي الذي يجعلني ألقي جسمي صوب مقعدها، دون أن أنتبه، وهو ما يزعجها ويؤذيها، لذلك نقلتها إلى مقعدك.

-أي أرحتها من الجلوس إلى جانبك؟

-نعم، أنا أشخر وأتحرّك بشكل سيء في نومي، حتى على السرير، امرأتي لا تحتمل النوم إلى جانبي، أنت احتملتني ولم تعترض، استسلمت.

-وهذا ما شكّل لك تقديراً لصبري عليك. وامتناناً لي فساعدتني.؟

-وقرأت فيك طيبة القلب والحزن.

-وما الذي جعلك تقوم بمثل هذه الأعمال الخطيرة على الناس وتصبح من رجال (الدلو) ومن رجال (الغول) بل حتى زوجتك وابنتك تعملان معك في هذه المهام الخطرة.

- لذلك حديث طويل، ولكني أقول لك باختصار، أن لكل منّا حكايته، وأحياناً تجري تحوّلات على الإنسان، تقتل فيه حتى نأمة الإحساس الإنساني.

-ولكنك كنت إنساناً معي.

لأنني تذكّرت فتوّتي، وكيف كنت أؤمن بالإنسان. أما الآن فتحوّلت، أصبحت مختلفاً.

-ما زال داخلك حيّاً يا عم.

طرق الباب بلطف ودخلت دينا:

-أرسلوني للعناية بك.

قال المليجي متنهّداً: ـ الحمد لله، أنا مطمئن عليه الآن. دينا ممرضة مخلصة لعملها، ويمكن أن تطمئن إليها تماماً. عن إذنك يا أسعد.

وعندما خرج وأغلق الباب قالت دينا:

-الحمد لله أنهم أرسلوني إلى هنا. هذا يعني أن الخطر زال عنك. أوامر الغول لا تناقش.

"ما الذي يحدث هنا؟ عليّ أن اكتشف أسرار هذا المكان إذا كسبت ثقة دينا ستحكي لي ما تعرف، وقد يكون ما تعرف كبيراً".

قالت له وهي تساعده بالتمدّد على السرير:

- الأفضل أن تتمدّد هنا. في انتظار وصول الطعام.

شعر بالخدر وغفا لدقائق ودينا تجلس إلى جواره. قبل أن توقظه وقد جاءت صبيّة أنيقة تدفع عربة انتشرت عليها صحون أنيقة فيها طعام منوّع:

-أحضرت هذه السفرة من الطعام، وقد قيل لي أن أنوّع فيه، لتتناول منه وجبة دسمة، تحتاج كثيراً لغذاء مركّز، هذا ما قيل لي.

قالت دينا:

-أنا مكلفة بالعناية به، ممرضته الخاصة، سأقوم بإطعامه بنفسي.؟

-عظيم، عندما تحتاجين شيئاً، اتصلي بي على هذا الرقم، اسمي لونا، أنا أخصائية تغذية.

-شكراً لك.

حكت له دينا عن المراكز العلمية في هذا الكهف الضخم بسراديبه وأنفاقه وأنها تعرف قسماً منها. وأن الكثير منها يخفي الأسرار، والسراديب تمتد أحياناً لعدّة كيلومترات لتصل بين أمكنة هذه المراكز العلمية.

- الغول مسؤول عن الأمن وعن توزيع الناس المختطفين على هذه المراكز.

-الداخل إلى هنا مفقود، والخارج مولود.؟

-لا يخرج أحدٌ من هنا. من ليس صالحاً للمراكز العلمية، يستخدمونه لأغراض أخرى في مهمات غامضة لا أعرف عنها شيئاً.

-وكيف تخرجين من هنا وتذهبين إلى أهلك.؟

-ابنة خالتي وهي أرملة لم تنجب أولاداً ولم تتزوج بعد زوجها المتوفى، تقوم بالعناية بأمي وأخي مقابل راتب شهري بسيط أدفعه لها. تعتقد أمي كما أخبرتها أنني أعمل خارج البلاد وأنني أزورها وأخي في إجازة قصيرة كل ثلاثة أشهر.

-ومتى كانت آخر زيارة لك لوالدتك.؟

- قبل ثلاثة أشهر.

-أي أن موعدها الآن؟

-حان منذ أربعة أيام، وذكّرت المسؤول عن بالإجازة. فطلب مني الانتظار فالوقت غير ملائم. ثم جعلني أتكلم مع أمي لأطمئنها.

-ألا تملكين جهاز هاتف خليوي؟

- لا، ممنوع علينا ذلك، نحن نتصل من خلال المسؤولين عنّا إدارياً، ولكن بفترات متباعدة، ولا يظهر الرقم عند والدتي، فتعتقد أنني أتكلّم من خارج البلاد، هذه هي القصة، ولكن لماذا هذه الأسئلة.؟

- مجرد فضول، حب استطلاع، أشعر أن شيئاً مشتركاً بيننا، كلانا معذّب وله ظروفه الصعبة.

-معك حق.

وأزّ جهاز على المنضدة قربهما:

-دينا أنت مدعوّة لمقابلة المعلم، حالاً دون تأخير.

-حاضر، أنا قادمة.

همست: ـ الغول يطلبني.

-أهناك أجهزة تنصّت في هذا المكان.؟

-أجهزة التنصّت والكاميرات موجودة في كل مكان.

- لو عرفت بذلك لما أكثرت من أسئلتي لك.

- لم أتجاوز الحدّ في حديثي كما أعتقد، أنا ذاهبة الآن، تناولْ طعامك بهدوء، وإن احتجت شيئاً اتصل بـ (لونا) خبيرة التغذية.

- أرجو أن لا يزعجك أحد. أتمنّى لك التوفيق. أنا بانتظار عودتك.

-إن شاء اللّه لن أتأخر.

مشت دينا صوب مكتب الغول. وقلبها يخفق من الخوف، هذه أول مرّة يطلبها الغول، هي لا تقابله إلاّ لماماً، ولم نتحادث إليه وجهاً لوجه. لماذا طلبها؟ هل أكثرت من الكلام فعلاً؟

وصلت أمام مكتبه، كان هناك حارسان يقفان على الباب، فتحا لها الباب الكهربائي لتجد نفسها في المكتب الملحق بمكتبه. أشار إليها الكهل مدير المكتب أن تدخل، وقد فتح الباب أوتوماتيكياً، لتجد نفسها أمام الغول.

-أنت دينا. هه؟ اجلسي.

- طلبتني يا سيدي؟

نعم، سأتبادل معك الحديث، لا داعي للخوف، أنت متوترة قلقة، هذه هي أول مرة أطلبك فيها بالاسم. أنت فتاة ذكية ونشيطة، وربما من أفضل الممرضات عندنا، قدمتِ طلباً لزيارة أهلك؟ هه؟

-نعم، حان موعد الزيارة قبل أربعة أيام.

-ولكنكِ تكلمتِ مع والدتك، وطمأنتك أن كل شيء على ما يرام.

-نعم يا سيدي.

-سأؤجل زيارتك لأهلك عدّة أيام أخرى، هه، في الوقت المناسب سأسمح لكِ بهذه الزيارة، هه، كيف حال كاتبنا أسعد؟

-هو بخير يا سيدي.

-هو كاتب يكتب قصصاً شيّقة قرأت بعضها، ولو كنت أعرف أنه من بين ركاب الحافلة، لما سمحت لهم باستئصال كلية من كليتيه. واستئصال أجزاء من أعضاء أخرى. على كل حال لا بأس، المهم هو بخير.

-نعم يا سيدي، هو بخير.

-ولن يسبب له ما استأصلناه من أعضاء مشاكل في المستقبل.

-علم ذلك عند الله يا سيدي.

-تابعت حديثك معه، لا تقلقي لم يكن خارجاً عن المألوف، ولكن لحظت أن نوعاً من الشفقة قد ربطتك به.

-هو رجل دخله قليل، رغم إصداراته المتتالية من الكتب، قصد المنطقة الشمالية الشرقية لإلقاء محاضرة. ربما لا تعد مكافأتها شيئاً، بالنسبة لحاجته المادية.

-لم يسافر بالطائرة، لضيق ذات اليد. أعرف ذلك. أنا أرغب في أن تصبحي لصيقة به، حتى يطمئن لك تماماً، وأريد أن توافيني بكل ما يجري بينكما. أنا أعرف أنه بدأ يميل إليك، لا بأس، تقبّلي منه هذا الميل بل وشجعيه، هه، فهمت ما أقصد.؟

-نعم يا سيدي، فهمت.

- سأعطي أوامري بأن لا يزعجكما أحد، وأن تنفذ جميع طلباتكما. بل وإن رغب بالاطلاع على بعض الأماكن في هذا الكهف، فلا بأس. سأعطيه إذناً بذلك، شرط وجودك معه.

-فهمت يا سيدي، أنا جاهزة لهذه المهمة.

-عظيم، يمكنك الانصراف الآن.

-شكراً لك يا سيدي.

خرجت (دينا) مستغربة الطريقة التي حكى فيها الغول معها، كان من المعروف أنه رجل شرس ومتوحش وشديد القسوة، ولكن طلبه منها أن تتقرّب لأسعد، أراحها، فهي تستلطف الشاب وربما بدأ نوع من الإعجاب به تكبر مساحته في قلبها، وصلت الجناح المخصّص لأسعد:

-خير؟ هل استفزّك؟

-لا. الأمور بخير، فوجئت به، هو رجل لطيف لم أتوقعه كذلك، نسمع كثيراً عن قسوته! ولكنه كان معي في غاية اللطف.

-الحمد له، كنت قلقاً عليك.

-تقلق علي؟ معقول.؟

-لمَ لا؟ أنت إنسانة طيبة، بل وأنت أملي هنا، لا أعرف أحداً أطمئن إليه إلاّ أنت.

-عند الحاجة إذن؟ لأنك تحتاجني تخاف علي.

-أكثر من الحاجة، أجد فيك شيئاً ضائعاً أفتقده.

-كأنثى؟ أم؟

-بل كأنثى، أنا مستغرب أنك لم تتزوجي بعد.

-أنا في الرابعة والعشرين من عمري، ما زلت صغيرة.

-أعطني يدك، أترين؟ أصابتني رجفة حين لمست أصابعك.

-أسعد، أشعر أننا قريبان من بعض.

ـ نعم، وسنزداد قرباً أكثر وأكثر.

طرق الباب ودخلت مسؤولة التغذية:

- تناول طعامه؟

- القسم الأكبر منه.

-أرني يدك، سأثبت هذا الجهاز عليها.

كان جهازاً إلكترونيّاً، ثبّتته على رسغه وبدأت تضغط أزراره، وهزّت رأسها مستغربة سألها:

-خير؟ ماذا ترين؟

- وضعه يتحسّن بسرعة. الحمد لله، لقد أوصاني به معلمنا غضب حين علم أنهم استأصلوا بعض أعضائه. قال إنه يقرأ قصصه وهو معجب به كثيراً.

- سأحاول العناية به جيداً.

-هه. أنت بخير، دينا ممرضة جيدة ستحسّن لك وضعك.

-شكراً لك.

خرجت وهي تقول مؤكّدة: ـ اتصلي بي لدى أي طارئ يا دينا.

4

ما الذي يريده الغول من أسعد، لماذا هذا الاهتمام به؟ هذا السؤال الذي حيّر دينا، ولكن السبب توضّح فيما بعد. فكل هذه العناية بصحة أسعد كان لها سبب وجيه عند الغول هو أن يصبح أسعد أكثر قرباً منه، وتطوّرت الأحداث في اتجاهات أخرى أيضاً.

-سنهبط إلى السرداب المنخفض، لتزور بعض الأقسام.

-سترافقينني؟

-بالطبع، وهناك أوامر باستقبالك والإجابة عن أي سؤال تطرحه، أنت تحسّنت قليلاً يمكنك الحركة بدون صعوبة.

هبطا بالمصعد. كان هناك سرداب مضاء، مفروش (بالموكيت) قالت له:

-غالبية السراديب مؤثثة جيداً وفيها ديكورات متقنة، الكثير من الأموال صرفت عليها، سنتجه صوب المركز العلمي رقم (1)

-ليس بعيداً؟

-لا.

فاجأه ما في المركز العلمي، ولم يتخيّل أن يرى مثل هذه المشاهد حتى في الحلم، استقبله المشرف على المركز:

-أهلاً بك في المركز العلمي لبحوث الخلية.

***

كان المكان يحتوي على مجاهر إلكترونية متطوّرة، تكبيرها يصل إلى المليونين، بحيث يمكن متابعة أشرطة الصبغيات، والجينات المختلفة، بدا مندهشاً:

رأى أعضاء بشرية موضوعة في أوانٍ زجاجية، تسبح في سوائل شفافة، سأل:

-ما هذه؟

-إنها أعضاء بشرية يجري استنساخها لتصبح أعضاء بديلة فيما بعد!

-لم تنجح هذه التجارب.؟

-بل نجحت، هه، ها هو البروفسور "وردان" المسؤول العلمي عن هذه التجارب، إنّه يعرف بقدومك.

تقدّم منه رجل كهل بلحية مدوّرة:

-أهلاً بك أستاذ أسعد، هه، بالنسبة لاستنساخ هذه الأعضاء، نجحت تجاربنا إلى حدّ كبير وخاصة في استنساخ الأصابع بالنسبة لليدين والرجلين، ولكن المركز هنا لم ينتقل بعد إلى التطبيق ما زلنا نستخدم أعضاء البشر الأحياء كبديل لأعضاء تالفة.

-ومتى ستنتقلون إلى التطبيق.

-بعد شهر من الآن، طبقنا الأعضاء المستنسخة في تجاربنا على الحيوانات وكانت النجاحات مذهلة.

-أي ستستغنون عن الأعضاء الحية المقتطعة من البشر الأحياء؟

-إن شاء اللّه، انظر إلى هذه العيون.

-تبدو بتفاصيلها كأنها أعضاء حقيقية، عيون بألوان قزحية مختلفة.

-يرغب البعض باستبدال عيون متعبة، بألوان قزحية خاصة، كاللون الأخضر، أو العسلي وحتى الأسود.

-وهذه الكلى؟

-لها مواصفات الكلى العادية الطبيعية، وهي فعّالة كثيراً، ربما بشكل يتفوق على كلى البشر الطبيعية، لأن جيناتها نقيّة خالية من الشوائب، وربما الأمراض.

-لكم علاقة بمراكز بحوث في دول متطورة؟

-نحن نعمل بشكل مستقل، وهناك شركات خاصة ورؤوس أموال كبيرة موجهة صوب أعضاء بديلة مستنسخة ونقية.

-وهذا الجزء من الدماغ؟

-أبحاثنا عن الدماغ معقّدة، ويشاركنا فيها علماء من جامعات وطنية في بلادنا، لم نصل بعد إلى المستوى الذي يجعلنا نعتمد كلياً على ترقيع أدمغة مصابة. نحن نعمل على استنساخ أدمغة بمواصفات خاصة، كما يطلبها منّا المشرفون على هذه الأبحاث.

-إنها أبحاث خطيرة يا دكتور "وردان".

- وربما لبعضها نتائج سلبيّة.

- مثل استنساخ أدمغة لأشرار شديدي الذكاء؟

- لست مخوّلاً للحديث عن ذلك، ولكن يمكن القول أن هناك اتجاهات نحو مثل هذه العمليات. المهم ما زلنا في البداية، كما قلت لك استنساخ الدماغ عمل شديد التعقيد.

تابع أسعد حديثه مع الدكتور "وردان" عالم المركز الأول.

-وهذه المجسّمات المتقنة، هل هي من البلاستيك؟

-نعم، هي مجسّمات لكل أعضاء الجسم بكل تفاصيلها، نحتاجهم أحياناً لمناقشة بعض مخطّطات التشريح. هي منفّذة عن طريق كومبيوتر دقيق، لتساير أجهزة الجسم بكل تفاصيلها كما قلت لك.

رأى في زاوية كبيرة في صدر الصالة قروداً وفئراناً وزواحف، وخنازير؛ فسأله:

- هذه حيوانات تجارب؟.

-هذه الحيوانات هي الأقرب لإجراء التجارب بالنسبة للبشر، القرود تشبه البشر في أشياء كثيرة، والفئران ثدييات تطبق عليها اختبارات خاصة،

يمكن فيما بعد أن تطبق على البشر أما الخنازير فشراييها وأوردتها وبعض أعضائها قريبة من شرايين وأوردة وأعضاء البشر.

-والزواحف.؟

-تستخدم لإنتاج ترياق مضاد للسموم.

همست له دينا: ــ إذا دققنا في التفاصيل، ستستغرق جولتنا على المراكز العلمية عدّة أشهر وأنت لم ترَ سوى قسمٍ صغيرٍ جداً من المركز الأول.

- معك حق.

تابع "وردان": ـ وهكذا ترى أن الهندسة الوراثية تعدّ أبحاثها بالكثير من الإنجازات، هه، ماذا تريد أن ترى أيضاً؟ حشرات متنوّعة أم أشكال حيوانيّة أخرى؟

-ماذا عن هذه الأعضاء البشرية السابحة في السوائل؟

- إنها أعضاء بشرية مستنسخة، وبعضها مقتطع من بشر كانوا أحياء، قبل أن تقطع أعضاؤهم وتستخرج أجهزتهم بشكل مباشر منهم، ويموتوا.

"يا إلهي، لولا المليحي لصارت أعضائي هنا".

شعر برجفة تعتريه، وهو يستعرض أياديَ وأقداماً وأرجلاً ورؤوساً وأدمغة وآذاناً وعيوناً وأعضاء مختلفة منفصلة تسبح في سوائل شفافة. جال في المركز ومعه دينا، والبروفسور "وردان" يشرح له كل شيء، مستعرضاً تفاصيل تشريحية لما يراه من أعضاء بشرية، وهو في جولته سمع تأوّهات لامرأة، همس لـ "دينا" يسألها:

- ما هذا يا دينا؟

- لا أدري يمكنك سؤال المشرف.

-أسمع تأوّهات يا دكتور.

-إنها إحدى النماذج التي نطبق عليها تجاربنا، امرأة أحد رجالنا، مصابة بالسكري، وأهملت أخذ الأنسولين فتغلغلت الغرغرينا في رجلها ممّا ادّى لقطعها، ثم عالجناها من السكري عن طريق الجينات. وبعد أن استقر وضعها، نحن حالياً نضع طعماً لرجلها المقطوعة، في مكان القطع حيث سنستنسخ رجلاً جديدة لها.

-ولماذا تتألم؟

-لأن تشكيل الرجل يؤلم الأعصاب المتداخلة مع الطعم الجديد؟

-ولماذا لا تعطونها دواءً مهدّئاً؟

-لأنه قد يؤثر على الطعم وتبرعمه وامتداده. قد تستغرق العملية عدّة أشهر قبل أن تمتلك رجلاً جديدة عادية. بالطبع كما ترى المرأة ما زالت فتيّة، لذلك طبّقنا عليها هذه العملية.

خرج أسعد ودينا من المركز العلمي الأول وقد شعر بالانقباض والقلق تبدو العملية معقّدة، ومؤلمة أحياناً. ولها محاذير كثيرة. وهو في طريقه إلى المركز الثاني، رأى في مدخله، بلطات وسكاكين وسواطير وحراباً وسيوفاً قاطعة. ولذهوله رأى جثثاً بشرية موزّعة معلّقة، غاية في الرعب، رأى جثثاً بلا رؤوس وبلا أطرف، وأحياناً بلا أحشاء، وشعرت دينا أيضاً بالخوف وهي ترى شيئاً لم تره من قبل.

-هه، تبدو مذهولاً يا أستاذ أسعد؟

-كأننا في مكان تنبعث منه رائحة الدم! أهي جثث حديثة.؟

-نعم، هي جثث لمجموعة من الناس أحضروهم هذا الصباح.

حدّق برعب في جثّة أمامه. كانت جثة سائق الحافلة. يا إلهي كم هي مشوهة. وإلى جانبها جثة المرافق المسكين:

- ماذا ستفعلون بهذه الجثث.؟

-بعض الأقسام العلميّة ترسل مندوبيها، لاقتطاع بعض الأعضاء المتبقية من هذه الجثث، بعد ساعة لن تجد شيئاً هنا. فقط آثار الدماء.

فكّر برعب "لولا ستر الله، كنت مكان أحد هذه الجثث، جثتي معلقة يقتطعون منها أعضاءها واحداً واحداً". شعر بيد تربت على كتفه التفت ليجد المليحي:

-كيف حالك؟ لن يمسك أحد بسوء، الغول أوصى بك.

-كيف حالك يا عم؟ وكيف حال الزوجة والابنة؟

-هما بخير، يقومان بعملهما بشكل ممتاز، ريّا قطّعت بعض هذه الجثث، قلبها قاسٍ، لذلك يكرّمها الغول دائماً بمكافآت مالية مجزية.

وأتت ريّا وهي تحمل ساطوراً يقطر منه الدم:

- أمي متعبة. تطلبك في المستودع.

-خير؟ ماذا حدث لها؟

- قدّموا لها لحماً مشوياً، وهمس أحدهم أنه لحم بشري فارتعبت.

-لا بأس أنا قادم، إن احتجت شيئاً يا أستاذ أسعد سأكون إلى جانبك.

قالت دينا بثقة: ـ أنا مكلفة برعايته يا عم.

سألت ريّا والدها بصوت منخفض: ـ برعايته؟ لماذا؟ هل هو مريض.؟

- اقتطعوا أعضاء منه، وحين قابله معلمنا الغول، أحبه يقال إنه قرأ من قبل بعض كتبه.

-لماذا لم تقدمني إليه؟ ما دام تحت حماية المعلم؟

-هو مختلف عنك، تبدو عليه الطيبة، والتسامح، وأنت قاسية دائماً.

-سأروضه.

شدّها من يدها بقسوة: ـ اتركيه، وامضي إلى والدتك معي، هيا.

شعر أسعد بالغثيان ولم تفارقه صورة الجثث المعلقة، ووجه سائق الحافلة وقد انتزعت عيناه وقطعت أطرافه.

"يا إلهي؟ أشعر أنني أعيش كابوساً فظيعاً".

سألته دينا: ـ ماذا بك؟ تبدو متعباً.؟؟

-نعم. الأفضل أن نعود.

- تشدّد، سنتابع جولتنا في هذا المركز ونعود، لا أعتقد أنه من المناسب قطع الزيارة فجأة. حاول أن تتشدّد يبدو وجهك شاحباً مصفّراً، أتشكو من ألم ما في جسمك.؟

-أعتقد أنني لست على ما يرام، عندي ميل للإقياء.

-من المشاهد الفظيعة التي رأيتها. هيّا سنلتصق من جديد بمرشد جولتنا في المركز.

وما إن شعر المشرف أنّه عاد يقترب منه حتّى قال:

-سنطلُّ الآن على المكان الذي نشحن منه الأعضاء البديلة المستخلصة من بشر أحياء إلى خارج المنطقة.

-كيف؟ عن طريق برادات شاحنات طويلة؟

-لا، هناك طائرات خاصة، تحمل هذه الأعضاء الموضوعة في برادات وسوائل تمنعها من التلف.

-طائرات خاصة؟ لديكم طائرات.؟

-نعم، تفضل لنطلّ على المكان.

فتحت أبواب أتوماتيكيّة ورأى نفسه والمشرف ومن خلفهما دينا في محطّة عربات قطارات صغيرة. كانت هناك سكك حديديّة ضيّقة وركاب بلباس موحّد من العاملين في هذا المركز الضخم الذي لم يتوقّع أن يكون بهذه الضخامة.

-حاول أن تتشدّد. قد تكتشف العديد من الأسرار التي لا يعرفها أحد، هه، هل يمكنك المتابعة، أما زلت تشعر بالغثيان؟

- زال هذا الإحساس، أشعر أنني يمكنني المتابعة.

قال المشرف وهو يشير لإحدى العربات المتوقّفة:

-هـذه العربـات مـبرّدة، إنهـا تقطـع (20) كـم في سـراديب تمتـد فيهـا سكك حديدية صغيرة، وهي تتحرّك على الكهرباء. تقطع هذه المسافة في سبع دقائق فقط. أتريد أن ترافقنا في الرحلة التالية، سنتحرك بعد قليل، سنذهب ونظلّ على مكان الطائرات والمطار الصغير المخصّص لها.

-لا بأس، أتمنى ذلك.

همست له دينا: ـ قد تتعب؟

-سأكون بخير، متعة الكشف ستنسيني أزمتي.

-الحمد لله.

اقتربت منهم امرأة خمسينيّة بروبها الأبيض! قدّمها المشرف:

-إنها الدكتورة عايدة، هي المسؤولة عن هذه الشحنات.

5

كانت عايدة تشرف على وضع الشحنات في القطار الصغير وهي تحرّك العمال وتوجّههم ابتسمت ثمّ قالت موضّحة:

- نحن ننقل في اليوم ثلاث شحنات، بعضها أعضاء دقيقة، محمية بسوائل معقدة، لتظلّ هذه الأعضاء الدقيقة بكامل حيويتها. ولا تتعرّض للتلف. طلب منّي المعلّم أن أجيب عن كلّ استفساراتك، أنا جاهزة.

-ترسلون هذه الشحنات إلى أمكنة داخل بلادنا، أم إلى خارجها؟

- عن هذه الأمور لا أعرف شيئاً، مهمتي إيصال الشحنات إلى المطار الصغير. قيل لي أنك كاتب تكتب القصة والرواية.

-نعم، كم مضى من زمن وأنت هنا تعملين في هذه المهمة.؟

-منذ سنتين. لماذا هذا السؤال.؟

- تبدين متحمسة لعملك. اعتقدت فعلاً أنك جديدة في عملك.

صفّر القطار فجأة وهو يخفّف سرعته، سألها أسعد:

- كم تبلغ سرعة القطار؟

-نحو (150) كم في الساعة. ها نحن نقترب من المحطة.

توقف القطار بعد أقل من دقيقة. وفتحت أبوابه، كان هناك عدد من العمال في الانتظار، يرتدون لباساً برتقالياً موحداً. وكأنهم يعرفون عملهم، فلقد بدؤوا ينقلون الصناديق الزجاجية، إلى مكان متسع أشبه بغرفة مفتوحة.

-تفضل أستاذ أسعد، يمكنك مراقبة إيصال الحمولة إلى الطائرة، هذه الغرفة المفتوحة هي مصعد متحرّك، أرضه ستتحرّك بعد الصعود إلى السطح لتنقل هذه الحمولة بنفس ترتيبها إلى الحاويات في الطائرة.

-التقنية مطبّقة في كل مكان هنا.

صعد ودينا مع عايدة إلى السطح، لينفتح المصعد على ساحة واسعة فيها أبنية زجاجية، وبدت عدّة طائرات نقل صغيرة في صفوف على طرفي مدرج المطار.

راقب نقل الصناديق ووضعها بشكل أتوماتيكي في الحاويات المكعّبة على رصيف متحرك، ينقل الحاويات إلى داخل إحدى الطائرات على المدرج.

-أنتم تقومون بعمل خارق، منظم.

-بالتأكيد، نحن جزء من منظومة عالميّة. ترتب هذه الأعضاء وتجري عليها الاختبارات قبل زرعها في أجزاء من أجسام بشرية تحتاجها.

"هذه الصناديق تحوي كلى طبيعية، ربما من بينها كليتي التي استأصلوها، آه يا إلهي"، عاد يسأل: ـ دكتورة عايدة، أنت مسؤولة عن إيصال هذه الشحنات الحيوية إلى هنا؟ ما هو اختصاصك.؟

-مختصة بالخلية الحية، عملت في المختبرات عدّة أشهر، من أجل صيانة الأجسام الحية أثناء نقلها. قبل أن أصبح مسؤولة عن هذا النقل.

- أمتزوجة؟ آسف هو سؤال خاص. يمكنك أن لا تجيبي عنه.

-لا، هذه ليست مشكلة. كنت متزوجة، ولكن زوجي مات! لذلك قصة طويلة، قد أحكيها لك فيما بعد، ما دمت تكتب القصة والرواية.

- أتمنى أن أسمعها، إن رغبت.

-ربّما فيما بعد، انظر الحاويات رتبت داخل طائرة النقل ستتحرّك هذه الطائرة الآن، هناك طائرة أخرى ستتحرّك بعد قليل.

-ما جلبتموه يكفي لعدّة طائرات.

-هناك صناديق من أمكنة أخرى، تأتي بوسائل نقل أخرى. أتريد أن ترى أشياء أخرى هنا.؟

-جولة صغيرة في بناء المطار.

-لا باس، تفضل.

دار أسعد في المكان، كان البناء مكوّناً من حواسب متطوّرة، ومهندسون يعملون مستغرقين في برمجياتهم. شعر أسعد أنه أمام تطوّر تقني عالٍ. تبادل الحديث مع بعض المهندسين، الذين أجابوا عن استفساراته حول البرمجيات المستخدمة.

غادر وعايدة ودينا في طريق العودة. عبر المصعد وفوجئ بأن القطار حمّل أيضاً بالكثير من الطرود، وأن العمال كانوا يرتبون هذه الطرود بدقة، قالت عايدة:

-هذه أدوية ولوازم طبية وغذائية يحتاجها المقيمون في الكهف.

وبدا له أنّ القطار سيتأخّر في الانطلاق فسأل كبير العمّال عن ذلك فقال:

-آسف يا أستاذ أسعد، سيتأخر تحميل الطرود لبعض الوقت، وحتّى لا تشعر بالملل والتعب من الوقوف، يمكنك ودينا والدكتورة عايدة الجلوس في الكافتيريا الصغيرة ريثما يصل القطار.

-لا بأس.

جلسوا في الكافتيريا وشجّع عايدة للكلام:

-ما دام لدينا بعض الوقت، يمكننا أن نتبادل الحديث.

- ألا تؤجل ذلك للقاء آخر؟

-قد لا يسعدني الحظّ بلقائك مرّة أخرى، كيف مات زوجك.؟

-لا بأس، أرجو أن تسمح لي دينا بالكلام بشكل منفتح، قصتي شديدة الخصوصية لا أستطيع أن أتوغّل في الحديث عنها بتفصيل وأسماء شخصيات وأمكنة، هي قصة تلخّص معاناة الناس هنا.

قالت دينا: ـ إن كان هذا يحرجك، سأبتعد عنكما.

-لا. كل من في الكهف من قدامى المقيمين يعرفون قصتي، لا بأس يا دينا، المهم، كنت متزوجة حديثاً من مهندس اتصالات، يعمل في شركة حديثة، وقد تطوّر عمله حتى أصبح مسؤولاً عن برمجياتها، وهو أرفع منصب فني فيها.

-في العاصمة؟ أم في مدينة أخرى؟

-لا، في مدينة حمص، كنا نعيش بسعادة، رغم أننا في سنّين متقاربين، أنا حاصلة على دكتوراه في علم الخلية حديثاً، وكان يعمل في الشركة منذ فترة قاربت ثلاث السّنوات، تعارفنا بالمصادفة في مقهى قرب الساحة الرئيسية، كنت أنتظر الحافلة المتجهة إلى العاصمة، وكان هو أيضاً ينتظر وصول الحافلة مثلي، كان يحمل فنجان قهوته في الكافتيريا يبحث عن مقعد، فلم يجد سوى المقعد الخالي إلى جانبي، فجلس فيه، سألني:

- ذاهبة إلى العاصمة؟ هه؟ وأنا أيضاً.

كان شاباً وسيماً واثقاً من نفسه، فتح حاسوبه ذا الحجم الصغير وبدأ يعمل:

-اسمي عاصم، مهندس اتصالات.

-أنت تعمل على برنامج معين.؟

-نعم. أستغل دائماً الوقت في العمل.

-على هذا الحاسوب الصغير، الخفيف سهل الحركة.

-وأنت ماذا تعملين؟

-أستاذة في الجامعة، حصلت على الدكتوراه في علم الخلية العام الماضي، وأنا ذاهبة لحضور (سيمينار) في جامعة العاصمة.

-آه. تشرفنا، هو اختصاص مهم، علم الخلية الآن أصبح من أهم علوم العصر.

-معك حق، والاتصالات أيضاً علم مهم.

"تبادلنا الأحاديث، حتى حضرت الحافلة. طلب مني رقم الجوال، وأعطيته ثم صعدنا الحافلة، كان مقعدانا متباعدين، وقبل العاصمة بقليل، فرغ المقعد إلى جانبي، فوجدته فجأة يجلس فيه وهو يبتسم".

-فرصة طيبة يا دكتورة عايدة، عرف أن هذا اللقاء العابر ليس عابراً، لأنني سأتصل بك حتماً وسنلتقي. أنا متأكد.

-ما المانع. تبدو شاباً مهذباً.

-ربما يمكننا أن نرتب لقاء اليوم، في المساء، أو غداً في أي وقت.

-اعتقدتك مشغولاً بعملك دائماً.

- لأنني أعمل وقتما أشاء، لا أُراكم عملي، لديّ الكثير من الوقت لأمارس فيه لقاءاتي مع الناس، أنا أحب التعارف والعلاقات الاجتماعية. عملي في الشركة هو استقبال طالبي العمل، وفرزهم، وهذا يتطلّب معرفة بأوضاعهم الاجتماعية.

(عرفت أنّني نلت إعجابه وهو يحاول أن يجد لنفسه مبرّراً للاتصال بي.

-هل ينتظرك أحد؟

-نعم. موظف في الجامعة ليقلّني إلى الفندق.

-سأتصل بك، بالتأكيد.

"تمّ التعارف سريعاً، وخلال أشهر تزوجنا، وبدأت المشاكل في المدينة حيث انتشرت مجموعات تزرع الرعب، وفوجئ يوماً بمن يقتحم شركته ويسوقه مع مهندسين آخرين إلى جهة مجهولة.

سألها أسعد: ـ كيف حدث ذلك.؟

- لا أدري، تلقيت اتصالاً بعد اختفائه وحرق الشركة بعد نهبها من شخص طلب مني مبلغاً كبيراً من المال للمساعدة في إعادته.

-فدية يعني.؟

-نعم، بسرعة دبّرت المال اللازم وحاولت الاتصال بذلك الشخص، كان الرقم الذي اتصل منه غير صحيح. ولم أعرف بعد ذلك عن زوجي شيئاً رغم اتصالاتي ومحاولاتي اليائسة.

-لم تعرفي ما حصل معه.

-لكثرة الحوادث في المدينة، انتقلت إلى العاصمة. وفوجئت أحد الأيام بمن يقتحم عليّ سيارتي، ويطلب مني الصعود معه، كانوا أشخاصاً عابسي الوجه، مفتولي العضلات، ذهبت معهم! لأرى نفسي وجهاً لوجه أمام (الغول) الذي استقبلني بابتسامة:

- آسفون على إحضارك بهذه الطريقة.؟

- ماذا تريدون مني.؟

-أن تعملي معنا، بالطبع لا خيار أمامك إما أن تقبلي العمل معنا بكل هدوء، وإما أن يحدث لك ما حدث لزوجك.

-زوجي؟ ماذا حدث له؟

-حاول أن يتذاكى علينا، وابتكر طريقة متقدّمة للاتصال بأناس في الخارج ليدلّهم على أوكارنا، ولكن أحد مهندسينا اكتشف خطته وأبطلها.

عرفت عندها لماذا لم يتصل بي، كأنه لم يرغب في أن يجعلني في دائرة خطرهم، ولكن ما الفائدة؟ أنا هنا الآن.. بينهم، عاد الغول يسأل:

-ماذا قلت يا دكتورة؟

-ليس أمامي خيار كما تقول.

-العمل معنا يعني الصمت وعدم التدخّل بأي شيء تشاهدينه، والصبر على كل المشاهد مهما كانت مريعة، وإلاّ.

كنت مرعوبة أفكّر "يا إلهي، من أجل هذا الطفل الذي أحمله سأصبر".

سألها أسعد: ـ كنت حاملاً.؟

-نعم، ولم أعرف أن هذا الحمل سيكون متعباً إلى هذه الدرجة، آه يا إلهي، كانت أياماً شديدة القسوة، لدى مروري بمخبر الفحص الطبي، اكتشفوا حملي، ودون أن أعرف حوّلت إلى قسم اختبارات الخلية، وبحجة معالجتي من مرض أوهموني بالإصابة به، بدؤوا يجرّبون عقاقيرهم على الجنين. ولم أنتبه إلاّ بعد فترة.

-إلى هذه الدرجة بلغت نذالتهم.

-كانوا يحتفظون ببقايا من جسد عاصم زوجي، الذي قطّعوه وبعثوا بأعضائه إلى أمكنة كثيرة، عن طريق هذا المطار. بدأت بحوثهم السرية على خلايا عاصم، وخلايا الجنين. كانوا يرغبون في أن ألد طفلاً عبقرياً، بعدما حقنوا السائل الأمينوسي المحيط بالجنين، ببعض منقوع خلايا دماغ عاصم.

-منقوع خلايا؟ لم أفهم.

-خلايا وسط سائل يحيط بها فيمتصها، ليصبح هذا السائل مركّزاً، ويسمى بمنقوع الخلايا.

وصلهم صوت صفير القطار، قال بهدوء:

-يبدو أننا سنصعد في القطار عائدين إلى الكهف، سألخّص بقيّة قصّتي التي اقتربت من نهايتها:

-أتحكين حكايتك هكذا لأي إنسان؟ أمسموح ذلك هنا.؟

-يعتبرون أننا نتسلى بالكلام عن همومنا ومتاعبنا الداخلية، فننفث شيئاً من الاحتقان والتوق للحرية، وهذا لا يشكّل خطراً عليهم ففي أية لحظة يمكنهم التخلّص منّا. الغول يعرف تماماً ما يفعل، إنه شخص ذكيّ، وربما لأنك كاتب قصة يغويك بالكتابة لتكتب مشاهداتك.

- التي قد يطّلع عليها فيما بعد؟ حسناً أملي قصّتك ونحن نصعد في القطار.

-المهم، كبر الجنين في داخلي، وحانت ساعة الولادة، وكنت خائفة كثيراً.

قالت دينا وهي تتنهّد بصوت منخفض:

-تذكّرت تلك الساعات العصيبة، كنت الممرضة التي تساعد طبيب الولادة.

-ولدتُ طفلاً غريباً، أشبه رجل ناضج، ليس له مظهر طفولي كان يبحلق بي ويشرد، وبعد أشهر قليلة ثلاثة فقط، بدأ الكلام، ثم الكتابة، ثم فسّر العديد من برمجيات الاتصالات وأخذ يتقدّم بالسنّ بسرعة. حتى صحوت يوماً لأجده إلى جانبي، طفلاً مسنّاً قصير القامة كبير الرأس، قال لي:

-لماذا لا تعطينني مقويات حتى أقاوم هذا الموت في داخلي.؟

-لا أستطيع يا بني كأني سأعطيك حقنة قاتلة.

-أريد أن أموت، أنا أتعذب، أراك بعد سنوات وأنت معذبة آية في التعاسة، وأرى هذا الكهف وسراديبه مستودعات للموت. يا إلهي أرى أناساً تقابلينهم وستحزنين على ما يجري بهم، آه، لا أرى إلا الظلام القادم.

غمغمت باكية: ــ أي عاصم الصغير. انتبه لنفسك، أجروا عليك تجاربهم ليقتلوك كما قتلوا أباك.

- آه يا أمي، أنا أموت.

"ومات بالطبع، وكلما أتذكره أشعر أنني أعيش في ظلام، وأنا أتخيّل كم ستكون السنوات القادمة مريعة".

كان القطار يبطئ في حركته حتّى توقّف. قال أسعد:

-سنلتقي يا دكتورة بالتأكيد، أشعر أنك واحدة منّا.

- اسمع يا أسعد، سأهمس لك بهذا الكلام، أنت تحب دينا، أشعر بذلك، وهي تميل إليك، حاول إنقاذها من هذا الواقع المرعب الذي تعيش

فيه، هي لا تعرف أنهم تخلّصوا من أهلها كلهم، وأن لا أحد من أقربائها على قيد الحياة، وربما ستصبح أسيرة هذا المكان إلى الأبد.

- متأكّدة من معلوماتك؟

- كل التأكيد، انتبه لنفسك جيداً.

غرق أسعد بالهمّ، وعرف أن (دينا) هي العالم الذي سيناضل من أجله للخروج من هذا الجحيم المرعب.

فهرس القصص

عن اجتياح الغيلان 5
في غابة الذكريات 35
انتصـار الفضيلـة المنسيّة 71
طواحيـن المـوت 101
قضيّة من الزمن القادم 141

قضية من الزمن القادم/ طالب عمران. – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2019. – 187ص؛ 20سم. – (سلسلة القصة؛ 2).

1 -813.01 ع م ر ق 2 -813.009561 ع م ر ق 3 - العنـــــــــوان
4 - عمران 5 - السلسلة

مكتبة الأسد